DAMAGE BOOK

*

الضاحك الباكى ...

تأليف

فكرى اباظه

المحامى

الطبعة الثانية

مطبعة الهلال

سنة ١٩٣٣

*

الأهداء

كنت سأهديه لها . . .

ولكن أين هي ؟ !

إنها تجسمت في خيالي ملاكاً . . .

ثم توارت عن خيالي . . .

فلن أهديه لأحد !

فكرى اباظه

المحامى

*

*

المقدّمة

كلُّ ما في هذا الكتاب قد وقع . . .

فاقرأوه على أنه حقيقة . . .

ولا تقرأوه اذا ظننتم أنه خيال

فكرى اباظه

المحامى

*

*

مقدمة الطبعة الثانية

جرى عرف المؤلفين فى مصر بأن يكلوا وضع المقدمات الى اصدقائهم ومحبيهم ومشجعيهم من كبار الادباء والكتاب . ولقد خضعت أنا بالذات لهذا العرف فى مجموعات مقالاتى الثلاث التى اصدرتها منذ سنين . ولكنى اليوم أثور على هذا العرف وأضع مقدمتى بنفسى

لم أثقل على صديق فأكلفه بأن يقرظ وبأن يمتدح ؟ !

لم لا يكون المؤلف شجاعاً فيعرض على قرائه ما يراه فى كتابه بكل صراحة وبكل جرأة ؟ !

لقد جربت نقد نفسى فنجحت التجربة وكانت مرآة صادقة ليس فيها زيف ولا تزوير ولا مجاملة ولا مداراة . على هذا الاساس أصدر طبعتى الثانية بمقدمة من قلمى . ولست أتحرج فى شيء فانما أكتب « لأسرة قرائى » فالمسئلة بينى وبينهم مسئلة عائلية فيها كل ما فى الجو العائلى من تسامح ، وإغضاء ، وصفح ، وغفران . . .

المحرض على التأليف

كتب الى كثيرون يسألوننى عن المحرض الذى دفعنى لتأليف هذا الكتاب ؟ وسأل آخرون يطلبون الى ان أوضح لهم كيف كنت أؤلف وفى أية ظروف وفى أى جو ؟

والجواب بسيط . . .

المحرض هي العاطفة ! . . . عاطفة غريبة الاطوار انتهت أخيراً بالفشل ، ولكنها خلفت لى ثروة « طائلة » من الخبرة والمناعة . ومن أغرب نتائجها المحققة أنى لا أدرى للآن هل كنت فيها المدين أو الدائن ؟ ! . . .

كانت تقضى بعض اجراءات تلك العاطفة بأن آوى الى مسكنى فى الساعة التاسعة مساء . وبأن اظل انتظر مخابرات تليفونية متكررة من القاهرة حتى ساعة متأخرة من الليل . وكان الوقت طويلا — والهدوء شاملا — والسكون مغرياً ومثيراً للذكريات القديمة . فقلت فى نفسى : أقطع الوقت بالتأليف . . .

وقد حصل . . .

☆☆☆

و يرتاب الكثيرون فى أن ما تضمنه كتابى قد وقع بالفعل كما ذكرت . ولا ازال ارجو من المتشككين أن يصدقونى ولو فى العمر مرة . . . كل ما فى هـذا الكتاب قد وقع . وإنما غالطت فى بعض التواريخ وفى الاسماء وفى الجغرافيا تقديساً للذكريات ، واحتراماً للابطال الذين ورد ذكرهم فى القصة . رحم الله من مات منهم وأسعد من عاش ! . . .

مبين

التأليف القصصى عمل جبار لا يستهان به . وفرق عظيم بينه وبين التهويش بالمقالات القصار . النجاح هنا مضمون وهناك عسير . والمؤلف

الامين الذى لا يسرق ولا يلخص ولا يستعير مؤلف امره الى الله . . .
لذلك أتممت القصة الاولى من كتابي . فلما وجدتها شيئاً يستحق العرض على اصدقائي جبنت ! ! ! جبنت وتراءى الفشل أمام عيني بمظهره المخيف الرهيب . وقرأت القصة على أحد أقاربي العصبيين فبشرني بالفشل وبالسقوط ! . . . ولكني تشجعت لأن قريبي هذا كان لا يمت الى الادب بصلة ؟ ! وقرأتها من جديد على أقاربي الادباء فشجعوني . . . ثم عرضتها على اصدقائي فشجعوني . . . ثم عرضتها على المرحوم العزيز « محمود سكر » فأبقاها عنده ساعتين ثم عدت فوجدته قد اعد عقداً بالشراء فتشجعت . . . ثم عرضتها على صديقي العزيز الاستاذ « اميل زيدان » وهو شاب رزين متئد لا يسرف في القول ، فقال لي : استمر ! فتشجعت وأتممت الكتاب . . .

كم ألفاً ؟ و بكم ؟

« سر المهنة » لا يبيح لي حسب الاصول المطبعية المرعية أن أعلن الوارد والمنصرف . ولكني لا أضن على زملائي الطابعين بالتفاصيل اذا شاءوا . . .

انعقد مؤتمر من الاستاذ اميل زيدان والاستاذ شكرى زيدان ومني . . . كم الفاً نطبع ؟ وكم الثمن ؟ . . . هذه اشياء قدتلذ للمؤلفين . . . وهي مباحث فيها كثير من التردد والاقدام والاحجام . . . وكانت « الازمة » تهددنا من بعد عدداً وثمناً . . . ولكنا توكلنا على الله

وحددنا الثمن معتدلا ؟ وجازفنا بالآلاف اعتماداً على مجرد الحظ ! وشرعت فى الطبع بدون اعلان حتى انتهى الكتاب . فهالنى المخزن وقد كدست فيه النسخ تكديساً . وانخلع قلبى لما قيل لى : ان « قلم المطبوعات » قد يصادر . . . أرأيت كيف يغامر المؤلفون فى مصر معتمدين على القضاء والقدر . وعلى المزاج الحكومى الذى اذا شاء « صهين » واذا شاء غدر ؟ ! هذه مسئلة جديرة بالعلاج، ويحسن ان تمر المسودة على الجهة المختصة قبل الطبع، حتى لا يصاب المؤلف بكارثة فى ماله وفى ذهنه وانتاجه . . .

نصيحة

انصح لكل مؤلف ان لا يعتمد على الاصدقاء وحدهم . وان يدبر اعلاناً ضخماً محكماً مأجورا . وأن يكون دقيقاً فى تحديد مواعيد الصدور والبيع والثمن ، دقة مضبوطة محبوكة الاطراف . عرفت بالتجربة أن « قرشاً واحداً » بين ثمن النسخة هنا وهناك قد يهدد كل البيع بالفشل . يجب أن يحتفظ الكتاب بكرامته وكبريائه ولو طال عليه الزمن ! . ولن اغفل بهذه المناسبة عن تسجيل شكرى إلى الصحافة التى جاملتنى فلم تقبل اجراً . . . والتى جاملتنى فقبلت أجراً استثنائياً مخفضاً . ثم لا أنسى أن أسجل شكرى العميق لصاحبى « الهلال » وملحقاته على الاذاعة العظيمة التى تكرما بها فى مجلاتهما الواسعة الانتشار . هذا شكر عائلى لن انساه . . .

زملائى واصدقائى وبعض كبار الكتاب

أما « زملائى » الصحفيون فبارك الله فيهم جميعاً من مختلف الاحزاب ومختلف النزعات. لقد أكرموا كتابى الا كرام كله . ولقد راعنى انى جوملت اكثر مما أستحق . فقد عنيت كل الجرائد وكل المجلات بتقريظه ونقده فساعدت بلا شك على رواجه . اما « أصدقائى » الذين طلبوا عشرات النسخ ووزعوها فى دقائق وساعات فسأقيم لهم حفلة تكريم إن شاء الله عندما أقبض ثمن الطبعة الثانية ! . . .

بقى بعض اساطين الادب فى مصر . ذوو الأسماء الفذة المعدودة . بعض هؤلاء لم يرد على اهدائى بكلمة ! ولم يعن بالكتاب ولا بصاحب الكتاب ! أؤكد ان كثرة العمل المرهق ألهتهم عن واجب الاشارة الهين المشجع . ولكنى والحق يقال توجعت وتألمت وتحققت من الفشل حتى قال الجمهور كلمته الحاسمة ، فنفدت الطبعة الاولى فى ثلاثة اسابيع ! . . .

مائتا خطاب

وامطرتنى سماء الادب السامى مائتى خطاب من كبار الادباء والمحامين والكتاب والمستشرقين فى مصر والشرق . مجموعة هي عندى اعز ما أقتنى فى حياتى . ثروة أدبية طائلة سأنثر بعض دررها نثراً فى بعض الجرائد والمجلات عند صدور هذه الطبعة . فى هذه المجموعة دروس غالية ، وفنون انشائية غاية فى الدقة والابداع ، وبحوث اجتماعية

رائقة ، وضروب من الادب العربي الفكه المسجون المكتوم الجدير بالاذاعة والنشر . . .

إلا أنى أحب هنا أن أشير الى الخطابات التى بدون امضاء . والتى ضن مرسلوها باسمائهم بحجة ان الاسماء تضعف من قيمة اعجابهم وتقديرهم . تلك الطائفة المجهولة من الرسائل كانت أوقع فى نفسى من غيرها . هي تشجيع برىء نزيه لوجه الله ولوجه الحق — فى نظرهم — فلهم منى الشكر الجزيل ! . . .

أما الجنس اللطيف الباكى الحزين الذى وثق بالمؤلف فأفضى اليه بمشاكله وأوجاعه وخصوصياته ، واستشاره واستفتاه ، فليثق كل الثقة بأن رسائله فى حرز حريز وحصن حصين ، وان العلاجات التى وصفتها فى ردودى هي كل ما فى جعبة تجاربى ، وأظن أنها لو اتبعت بشىء من الفلسفة لأنتجت أثرها المنتظر بعون الله . . .

النقد

أنحنى أمام « النقد » اجلالا واحتراماً وأشعر من أقصى نفسى بأننى مدين للناقدين أكثر مما أنا مدين للمقرظين . . . قال بعض الادباء : ان « القصة » غير مرتبطة الاجزاء . هذا صحيح . ولكن فات الناقد العزيز أننى لم أقل ان كتابى قصة مرتبطة الاجزاء . هي تاريخ روائى « استعراضى » لشخصية واحدة . وفرق بين الاستعراض القصصى والرواية . . . وليعلم القراء أنه لم يبلغ بى الغرور بعد الى الاعتقاد بانى جدير بتأليف القصة كالمؤلفين الغربيين . . . هذا فن فى السماء وأنا لا أزال فى الارض . لقد

حاولت وأردت ان اجرب وان اطرق الباب فقط . وقد قنعت بقسطى المتواضع من النجاح فى هذه الناحية . فلينتظر الاديب الكريم الخطوة الثانية . . .

وقال أديب آخر : إن لغتى تحتاج إلى بعض « الرتوش » . وهو صادق فى هـذا بل مجامل . لغتى لا تحتاج « للرتوش » فقط وانما تحتاج الى « الترميم » . . . ودفاعى الوحيد اننى تعمدت وأتعمد هذا . أنا أكتب للشعب أكثر مما اكتب للخاصة . فان راق لهؤلاء أن يقرأوا فأهلا بهم وسهلا . أما اولئك فهم محل عنايتى واهتمامى . و يجب أن يكونوا محل عناية كل الكتاب وكل الادباء . أما الزمخشرى والقلقشندى وابن قرة وابن مرة والزيلعى والمهيلمى فلست من مدرستهم ولن أكون ! . . .

وقال أديب : اننى جرىء أقتحم النسائيات باندفاع . وهذا صحيح أيضاً . ولـكن السينما فى القاهرة كل يوم تقتحم النسائيات بضعف ضعف جرأتى وأضعاف أضعاف اندفاعى . مع فارق واحـد : ان « السينما » يقرؤها ويراها الاطفال . وكتابى لا يقرؤه ولا يراه الأطفال ! . . .

وقال محرر « المقتطف » الحـكيم : اننى برهنت على خبرتى بالرجال ولكن خبرتى بالنساء قد لا تكون كاملة . وردى انه محق . ولـكن من المستحيل ان يدرك كاتب غرائز النساء فهى لا تزال فناً غير مفهوم ! . . .

وقال المستر « جرانت الـكسندر » المحامى الانكليزى الشهير فى مقال نشرته « الاجبشيان جازت» : ان الكتاب مبك اكثر منه مضحكا . وهذا صحيح فقد كتبته من قلبى ومن وجدانى . وقد تظفر بالمضحك من لسانى لامن قلبى ولا من وجدانى . . .

هذه خلاصة الانتقادات وهذه خلاصة الردود . واعد حضرات الأدباء باتنى فى المرة المقبلة سأكون حريصاً على أن اكون حريصاً . . .

☆☆☆

بقيت كلمة اخيرة أرفعها الى مقام الجمهور السامى . إلى ثروتى الطائلة التى اعتززت بها فى ماضى ، والتى سأعتز بهـــا فى مستقبلى وإلى الابد . . . الى الجمهور الذى غمرنى بعطفه وبتشجيعه وباقباله . تلك الكلمة ، بل ذلك الوعد ، بل ذلك الميثاق هي انتى : لن أخون ! ! ! ؟

فكرى اباظه

المحامى

ثروت

*

الدمعة الاولى !...

نحن الآن فى أغسطس سنة ١٩١٧ . . .

وقد تخرج الاستاذ « شكرى . . . » فى مدرسة الحقوق . حاملا شهادة « الليسانس » . ولكن فرحه بها كان دون فرحه بلقب « أستاذ » . وهو لأول مرة يعنى بلبس « النظارة » كأنها من مستلزمات الفقهاء أساطين القانون . ويحمل عصا فاخرة تزن مشيته على قاعدة موسيقية ليس فيها نشاز . وتساعد على أن تبدو متئدة رزينة فى نظر مخلوقات الله و « زبائن المستقبل » . . .

والاستاذ « شكرى . . . » لم ينس بتاتاً أن يلبس ياقة امريكانية ورباط رقبة من نوع ما يلبسه الرسامون والممثلون وارباب الخيال . . .

هل أفلحت كل هذه الاستعدادات فى أن تجعل من مواد خلقته « الخام » شيئاً جميلا ؟ !

يقول الآنسات والسيدات وأصدقاؤه الشبان ومعارفه الرجال : كلا !

ويصر هو على أن يكون الجواب بالايجاب . . .

على أن المشكلة لم تكن وليدة هذا الخلاف . بل إن أنكى ما نكب به هذا « الاستاذ » ان خصومه فى جماله كانوا يجمعون على الاعتراف بأن «تقاطيع» وجهه منفصلة مجزأة مستقلة جميلة ... أى أن كل واحدة

على حدتهـا لاعيب فيها . ولـكنهم يجمعون فى الوقت نفسه على ان مجموعها ليس بالجميل . . . وكانت هـذه النظرية غير مقبولة فى نظره من الوجهة الحسابية والعملية : ما دام كل جزء جميلا فالـكل جميل . . . كانت هذه قاعدة دفاعه وخطة مرافعاته . وكانت روحه المرحة تساعد على ذيوع شناعة خلقته . حتى تعدوا الحقيقة بمراحل فظلموه . . .

خريج المدرسة لا يعنى بالمستقبل اكثر مما يعنى بالعواطف . إنه قد أدى واجبه وقطع مراحل الدراسة وأصبح فى مصاف الرجال : أول ما يصطدم به الخريج بعد عناء الدرس هو الحب ! . . .

خلا القلب من هم الجغرافيا والتاريخ والحساب . وخلا الذهن من هم القانون الرومانى والاقتصاد والحجز على الاسهم والسندات . إذن فى قلبه وذهنه فراغان فلتملأهما « جوليت » و « ليلى العـامرية » و « كليوباترا » وغيرهن من مخلوقات الله الحسان . . .

وأخذ يبحث عن الحب فدله أحد اصحابه على المنزل نمرة ١٩ فى « بنسيون » أربأ بقرائى أن أسميه . . . مالكم واسم « البنسيون » وموقعه والحب لا علاقة له بالقصور ولا بالا كواخ . والحب لا صلة له بالجوامع ولا بالـكنائس ولا بالمواخير . الحب أنى وجد هو الحب ! له قدسيته فى أقذر البيئات وأحط المغـاور والحانات . له جـلاله وعظمته فى أحقر الشخصيات وأدنأ الارواح والنفوس . الحب هو مرض ، هو جنون ، هو حمى ، هو شيء لم يدركه الاولون ولن يدركه الآخرون . . .

كانت الفتاة تسمى « ثروت » . وكان اسمها فذاً عجيباً ، ولغرابة الاسماء فى بعض الاحايين جاذبية تضيف الى سائل العواطف نسبة معينة

من العواطف . . . ما عهدنا ان « ثروت » اسم يطلق على الفتيات . ولكن ما العمل واسمها « ثروت » ؟ ! .

✡✡✡

نظر اليها الاستاذ نظرته البسيكولوجية . وسلط عليها أشعة فراسته فلاحظ أنها تبدو طبيعية فى كل شىء . فهى لا تغرق فى المجاملة كما يغرق فيها غيرها من محترفات الحب ومرتزقة الاهواء . وهي لا تعنى بالحاضرين والذاهبين . ثم هي بين آونة وأخرى تصدر زفرة أو حسرة أو آهة . من أعماق النفس لا من الحلق . . . ثم هى لا تعنى أقل عناية بتواليت الوجه ولا باناقة الملبس . وكانها بعد تعدد المقابلات حنت الى صداقته ووجدت فيه مالم تجده فى غيره من الرواد

وفى ليلة من الليالي اصطحب الاستاذ معه أخاه الاصغر . ولم يكن صغيراً للحد الذى لا يناسبه الاصطحاب وانما كان فى سن الشباب الناضج. فلما تم التعارف بينها وبينه قذفت الاستاذ بنظرة ازدراء رهيبة ثم همست فى اذنه قائلة : يالها من سقطة . !

قال الاستاذ بلهجة المحاكم : وإذا جاء وحده . ؟

قالت : تكون بريئاً من ذنبه ويكون بريئاً من ذنبك . احترامك فرض مفروض على أخيك الاصغر وقد تطوعت للقضاء على هـذا الاحساس . ثم هبه يعلم فان التجاهل يقوم مقام الجهل فهيا انصرف فى الحال وخذه معك ! . . .

✡✡✡

هذا الدرس الصغير وقع وقعه المؤثر فى نفس صاحبنا فشعر بالخجل

العادل المصحوب بالمنطق المعقول . وفى الزيارة التالية شكر لها نصيحتها فزادتها شرحاً بأن قالت :

« هب ان أخاك هذا مال الى . وهبنى ملت اليه أنا الاخرى وعذرى واضح : فهو أصغر منك سناً ، وارشق قواماً ، واجمل تنسيقاً وتركيباً . هب ان الحب تمكن بيننا والحب لا يخضع لتقاليد ولا لآداب ولا لوفاء أو ولاء . هب اننا اختلسنا خباياه وخفاياه فى غفلتك وشاءت الظروف أن تكشف الخبايا والخفايا . أى عداء تولده الغيرة وأى شقاء تنكب به الاسرة ؟ ! . . . »

قال لها : صدقت . . .

قالت : قل لاصدقائك إذن أن يحذروا ما وقعت فيه . قل لهم إن فتاة مجربة قد اصطدمت بمئات المآسى فى حياتها القصيرة من هذا النوع ومن هذا القبيل : مادخلت امرأة بين أخ وأخ ، أو بين قريب وقريب ، أو بين صديق وصديق ، الا افسدت عدلا أو ظلماً بين الاخ وأخيه . والقريب وقريبه ، والصديق وصديقه . . .

« المباذل من اصولها التستر فلا تعلنوا عنها ولا توجدوا لها شهود العيان . . . »

قال لها : قبلة اعجاب ! . . .

قالت : خذها فلعل فيها شيئاً من النبل والشرف وسط هذه الادران . . .

✡✡✡

وفى ليلة أخرى طلبت « ثروت » الى صديقها الاستاذ أن يزورها

نهاراً . واختارت أن تكون المقابلة وقت القيلولة أو قبل الغروب . فلما شرع دم الغيرة فى الصعود الى شفتية وعينيه وصدغيه لطمته على وجهه لطمة طيبة ساذجة وقالت :

« اسمع ياصبي فلسفة الليل . الليل من شانه التهيؤ والتزين والتصنع والشراب وحب الظهور . فأنت لا تظفر بحقيقة من تحب ليلا وانما تظفر بحقيقتها نهاراً ، الليل حياة مزخرفة معدة ، يودع فيه أمثالنا وأمثالكم حياة الجد والتفكير والتبصر ويهيمون فى عالم هو أقرب لعوالم المسارح منه لعوالم الحقيقة . نحن وانتم نتنكر فى الليل ونسفر فى النهار . فان شئت أن تعرف من أنا وأن أعرف من أنت فواجهنى فى النور وحذار حذار أن تواجهنى فى الظلام ! . . .»

قال : لك هذا . . .

قالت : اذن الى اللقاء فى حماية الشمس ! . . .

☆☆☆

خرج الاستاذ بنظارته ، وياقته الامريكية ، وعصاه ، يهتز غروراً ويقول لنفسه : لقد احبتنى الفتاة . . .

« ومن حيث إنها أحبتنى فيجب أن افكر فى خيرها جدياً . . .

« ومن حيث انها فى هذا الوسط فيجب انقاذها . .

واذ وصل الى هذه النقطة خطر له فجاة خاطر اسود فتوقف عن السير وقد اهتزت أعصابه وأخذ يتمتم كالمحموم :

« لعلها ابتكرت حكاية النهار لتخلص منى فى الليل ؟

« ولعل العاشق ذا الحظوة هو بطل الظلام ! . .

وتقهقر خطوتين أو ثلاث خطوات على نية العودة اليها « لاجراء التحقيق » ولكنه عـدل واستمر الى مسكنه وقد استولى عليـه سوء الظن وأخذ يناجي فراسته بخليط من المتناقضات ؟ فتارة هي سافلة منحطة ، وتارة هي تعسة كسيرة الجناح ، وحيناً هي مخادعة مخاتلة . وأحياناً هي مجنونة طائشة ، ومرة أخرى هي « بنت الهوى » ولا أمان لبنـات الهوى ، ومرة أخرى هي فريسة القضاء والقـدر والحظ المنكود . . .

وخلع ملابسه حيث كانت الساعة العاشرة وبدأ النوم يلاعب أجفانه فى الساعة الثالثة صباحاً ...

ولا بد ان القارىء قد مرت عليه تجارب كهذه ، فلا داعى لذكر سخافات هواجس الارق وكشكول الخيال العجيب فى مثل هذه الساعات . فلندع الاستاذ يقضى ساعات النوم القليلة قبـل أن يحمل محفظته الى المحكمة ولنتكلم عنه فقد نسينا أن نقدمه على حقيقته للقراء . .

☆☆☆

يذكرون عنه فى طفولته من عهد الولادة الى عهد الفطام أنه كان لا يعرف البكاء . وكان ترتيبه الثالث عند ما ولد . فلما ترعرع قليلا كان فريسة أخويه الكبيرين . ولا تزال فى جسمه آثار اللطم والضرب والعاهات الصغيرة التى تخلفها عادة مشاجرات الاولاد . ولم ينعم الولد الصغير بحنين خاص أو عطف خاص أو حب خاص . بل كان فى منزل أبويه « شيئاً » لا بد من تربيته والسلام . .

والاسرة من بيت كبير وعيلة ضخمة الحسب عتيدة النسب . وكان

من عادات الاسر الريفية فى ذلك الوقت المأسوف عليه أن ترسل اولادها لمدارس القاهرة مستقرة فى الريف مسقط الرأس ومصدر الرزق وعماد العصبية والحيثية . كانت الاسر فى ذلك الوقت المأسوف عليه لا تعرف إلا الحقل ، والجرن ، وموسم الحصاد وجمع القطن ، ولا تعيش الا مع اتباعها من الفلاحين الزارعين

وكان الخير كثيراً لم تبدده كهرباء العواصم ولا لياليها الساهرة ولا سهراتهـا الزاهرة ولا مدنيتها الساخرة الفاجرة . كان الاولاد فى مدارس العاصمة يعيشون وحدهم عيشة استقلالية علمية لايفسدها الدلال على الام ولا التجنى على الاب الضعيف . وكانت عيشة من طبيعتها أن تكون خشنة غير ناعمة . وأكثر ما يفسد الفتيان فى مستهل حياتهم ان تلحظهم النعومة بعناصرها المختلفة ، نعومة الامهات ، ونعومة الآباء ، ونعومة الملبس ، ونعومة المأكل ، ونعومة المصروف الوفير

كان الفتى بطل هذا الاستعراض يعيش مع أخويه كعيشة الجنود فى الثكنات مع الفارق . وكان والد الثلاثة شديد الرقابة يلحظ أولاده فى الشهر مرتين أو ثلاث مرات . فيقوم بواجب الحنو وواجب الاعداد . ومن حسن حظ هـذه الفرقة الصغيرة من تلاميذ المدارس أن قائدهم وهو أخوهم الاكبر كان قدوة كطالب للتعلم . دقيقاً فى مواظبته وفى مطالعته . والعجيب فى مشاهدات هـذه الحياة أن الاخ الاكبر « كالاصل » تطابقه النسخ المطبوعة على غراره . فان كان فاسداً تبعه اخوته فى الفساد . وإن كان صالحاً تبعه اخوته فى الصلاح ..

والخلاصة ان ولدنا الصغير نشأ نشأة مدرسية « مضبوطة » من كل

الوجوه . وكانت حلقات دراسته حلقات نجاح بارز أسمى بكثير من مرتبة « العادى » وأقرب بكثير الى مرتبة النبوغ ...

غير أن الاخ الاكبر رغم عبقريته كتلميذ وكطالب كان فيما بعد قدوة غير حسنة فى النسائيات . وهذا هو السر فى أن استاذنا حين ترك المدرسة عدا عدو خيـل السباق الى المنزل نمرة ١٩ فى « البنسيون » الذى لم أشأ أن أسميه . . .

☆☆☆

ما دمنا قد عدنا الى ذكر المنزل نمرة ١٩ فلنستأنف اخبـار مقابلات « النهار » فيه . . .

الساعة تدق الثالثة بعد الظهر ...

والاستاذ فى محل يلدز منهمك فى شراء بعض الحلوى يحملها هدية متواضعة لصديقة النهار ... صديقة القيلولة أو قبل الغروب !

وها هو يسرع بحمله الخفيف الى دار الحبيب . فاذا ما وصل لباب المسكن دق دقة أنيقة فانفتح الباب . . .

السكون حقيقة مخيم والشمس ترسل اشعتهـا إلى داخل الغرف . وهذه « ثروت » تستقبل صديقها باسمة وتبادر فتأخذ هـدية العاشق وتعطيه الثمن قبلة ... ثم تلتفت الى الشمس ضاحكة وهى تقول : الشمس مطهرة يا أستاذ وأشعتها تقتل الجراثيم ...

وإذ تدخل غرفتها وتغلق وراءها الباب ترتمى على سريرها وتشير اليه بالجلوس على كرسى بجوار السرير ...

هل وصفت لك هذه الفتاة أيها القارىء ؟

انها سمراء اللون . والسمرة تختلط بقليل من الاصفرار الوديع ..
شعرها الاسود الكثيف النامى الطويل تترك له حريته فيتدلى حيث يشاء بغير نظام ..
وجهها دقيق أنيق التقاطيع ترتسم عليه الطفولةوالسذاجة فصيح فى تحديد السن الصغيرة بغير الرجوع الى شهادة الميلاد ..
جسمها يستطاع حمله بسهولة وبغير عناء ..
اما عيناها ففيهما كل السحر وكل الجاذبية . لا استطيع ان اصفهما تماماً وانما اقول بايجاز انهما من النوع « الغزاز » ومن النوع الشفاف الذى يفضح ما وراءه وينم عما خلفه . من النوع الذى يكتب ويقرأ وينطق بغير مداد وبغير لسان ..
والاستاذ « شكرى .. » له فى العيون قصائد فهو خبير بالعيون.
والفتاة على العموم صغيرة ، طفلة ، شىء يود العاشق ان يأ كله ..
وبين ضفتى الشعر تبرز خصلة ثائرة عصبية لاتستقر على قرار . فهى دائبة على مداعبة الجبهة بقوامها والعينين بطرفها . ورأس الفتاة يعانى من أحوالها الصبيانية كثيراً . فهو دائماً أبداً متحرك حركة عصبية ليحول بين خصلة الشعر والجبهة والعينين ..
هذه المخلوقة الغريبة تستقبل الاستاذ الولهان وعليها قميص عادى من نوع ما يرتديه الجنس اللطيف لنفسه ، وحده ، لا للمعجبين ولا للعشاق ..
وقدماها هاتان عاريتان . وهذه البودرة وهذا الاحمر لم يقوما بواجب استقبال الضيف العزيز ..

يستعرض الشاب هـذه المظاهر في نفسه وقد استلقت هي على الوسادة وسبحت في جو الافـكار . .

وطالت لحظة السكوت فحدق الاسـتاذ في عينيها واذا به يظفر بدمعة ! . .

— تبكين ؟ . .

— . . .   . . .

— ثروت ! تبكين ؟ !

هذه دمعة أخرى . وهذه ثالثة . ثم هي تخفي وجهها بين الوسادتين فيقترب بيديه نحو وجهها فيلمس ماء الدموع !

والشاب عواطفي فهو يطبع على ثغرها المبلل قبلة ولا يتمالك ان يحكم قلبه الطيب فتتساقط على وجهها من عينيه قطرات الدموع . .

واذ تحس الفتـاة دموع الفتى تنهض مأخوذة وتهتف بصوت خافت :

— تبكي ؟ !

فيقول : نعم !

— ومن أجلي ؟

فيقول : نعم !

— ومن غير ان تعلم لم بكائي ؟

فيقول : نعم !

فتحدق آسفة ثم تقول : يا لك من تعس ! !

ثم تتناول منديلها فتمسح دموعه بعطف واسى

ثم بغتة تستوى جالسة فى سريرها وتحدجه بنظرة ثائرة ثم تشرع فى هذه الاسئلة :

— ما اسمى ؟

— ثروت . .

— كذب ! . . . ما جنسيتى ؟

— مصرية . . .

— كذب ! . . .

وتمر فترة قصيرة من سكوت فى نظر الفتى طويل . .

✡✡✡

وتقفز الفتاة من سريرها وتتجه نحو الدولاب فتخرج ملفاً فيه أوراق . ثم تعود الى سريرها وتخرج صوراً فتوغرافية تحدق فيها ثم تعرضها عليه : « وهذه صورة أبى . وهذه صورة أمى . . وهذه صور اخوتى . . وهذه صورة منزلنا فى « ارمينيا »

ويصيح « شكرى » بدهشة قائلا : « ارمينيا » ؟ !

فتضحك ضحكة عنيفة وتقول : نعم ارمينيا . ألم تفهم للآن اننى « أرمنية » ؟ . . .

فيتمتم هامساً : ثروت ! . .

فتقول : ثروت ! . .

ثم تجهش بالبكاء وقد قبضت على ملف الاوراق . . .

وتنتابها إذ ذاك حركة تشنجية ثم يستولى عليها فجأة طارىء جنونى. فتطوق بذراعيها عنق « شكرى » بشدة وقوة ثم تصيح فزعة مأخوذة وهي ترتعد ارتعاداً واضحاً : انقذنى من الوحوش .. انهم ذبحوه ! .. أتوسل اليك . انقذنى . جاء دورى . احمنى من السكين !

وتظل عالقة بعنقه والفتى قد ارتبك ارتبا كا ظاهراً فان تطوراتها السريعة المتتابعة لم تترك له الوقت الضرورى لاستعادة رزانته . وإذ يشعر بالبرودة وبالدموع وبالهلع لايملك الا أن يبكى هو أيضاً . ثم كأن الفتاة قد تعبت من جراء هذه الثورة العصبية والجسمية والذهنية. فهى تستكين وتضعف وتلقى برأسها على صدره وتغمض عينيها و يزورها نعاس غريب عجيب ... !

☆☆☆

فى مثل هذه المواقف الشاذة التى ليس لها مقدمات يشعر الرجل منا بشعور الاطفال . فى مثل هـذه المواقف يتصل الرجل منا بالله وبالقدر فيستسلم ! ..

وشاب « كشكرى » حديث العهد بالدنيا العملية ، قليل الخبرة بمآسى هذا الصنف من مخلوقات الله . لم يفعل شيئاً .. يحدق ويقبل ، ويقبل ويحدق .. وظلت هـذه مهمته حتى أخذت الفتاة تستيقظ أو تفيق ، ثم « غادرت » صدره الى سريرها فأسرع الى « الكولونيا » وأخذ يدنيها من فمها وبدلك وجهها وذراعيهـا حتى نظرت اليه نظرة هادئة وقالت : أشكرك ..

قال لها : كيف حالك الآن . ؟

قالت : أحسن ..

قال : أتحتاجين الى طبيب ؟ ..

قالت : مطلقاً .. كم الساعة ؟

قال : السادسة ...

قالت : اذن هيا . أسرع الى المكتب وأد واجبك وعد إلى فى القيلولة أو قبيل الغروب ..

قال : يستحيل على أن اتركاك على هذا الحال ...

قالت : افعل ما أقوله ولا تناقش . إن حملى ثقيل . والمرأة التى يضحى لها الرجل من عمله وواجبه امرأة ان أحبت منه هذا العمل فى البداية احتقرته فى النهاية ... دعنى حالا . انى أريد ان اعد عدتى لليل فاذهب ...

قال : اهذه حقاً إرادتك . ؟

قالت : نعم وبلا تردد . انما لا تنس الغد وأعدك بأن أكون صافية المزاج ...

والشاب لم يفق بعد من الدهشة فلا يسعه إلا الانصراف ولكنها تستوقفه باسمة وتقول :

— ان العشاق يقبلون عند الانصراف فأين قبلتك ؟

فيعود اليها « منفذاً الاوامر » ثم ينسحب بسكون فتغلق الباب وراءه وهى تقول :

« مسكين .... »

تخيلات الطريق

هذا هو البحر الخضم الذى يرتطم بأمواجه وتياراته العشاق . والبحر فيه الصخر واللؤلؤ وفيه اللذة والخطر ..

يقول الاستاذ لنفسه :

« أولا : البنت متعلمة ناضجة الحسن تفهم الحياة أكثر منى ...

« ثانياً : إنها من بيت طيب بدليل الصور الفوتوغرافية لابيها ولامها ولاخوتها ولمنزلها ..

« ثالثاً : إنها لا تزال زهرة يانعة فلم تمكث طويلا فى أيدى قاطفي الزهور ..

« رابعاً : إنها ذات آلام ودموع فلها سر أليم رهيب ..

« بناء عليه : هى جديرة بالحب رغم « موقعها الجغرافى » ورغم ظاهرها التعس .. »

وبعد أن يصل الاستاذ الى هذه النتيجة بعد ذلك التسلسل المنطقى البديع يعود فيقول لنفسه :

« أولا : انها « ارمنية » ...

« ثانياً : إنها سقطت والسلام . وكم سقطت أخت لها من قبل ، لها أب أرقى من أبيها وأم أفضل من أمها ، وإخوة أنبل من إخوتها ، ومنزل أكرم من منزلها ..

« ثالثاً : ان الدموع ثروة النساء ..

« رابعاً : مالى أنا وللأدوار العصبية ، والنوبات التشنجية ، وهذه الحالات الجنونية . .

« بناء عليه : هي غير جديرة بالحب . وأنا جدير بأن أتفرغ لعملى وواجبي ومستقبلى . . »

وإذ يصل إلى هــذه النتيجة بعد ذلك التسلسل المنطقى البديع تدركه سيارة من سيارات الاجرة وتقف فجأة وتطل منها « ثروت » فيرفع نظره اليهــا ببشاشة كبشاشة الاطفال فتقول له : كنت ذاهبــة اليك فى المكتب لاعتذر اليك ولأكرر شكرى ولاذكرك بباكر فى القيلولة أو قبيل الغروب فلا تنس ...

وإذ يحاول الرد عليها يجدها قد غابت بسرعة عن ناظريه . . . وتزول من خاطره النتيجة الثانية بأسبابها وحيثياتها وتستقر الاولى فى الذهن ، وفى القلب . .

☆☆☆

فى مكتب أحد كبــار المحامين يشتغل « المتر شكرى » كمحام تحت التمرين . وصاحب المكتب محام بارع ليس فيه إلا عيب واحــد . أنه رجل كما يقول العامة « دغرى » . . ولهذا كان صنف النساء من الزبائن لا يتمتع بالدلال اللازم فى المكتب . ولكن من عهد أن اشتغل به الاستاذ شكرى المحامي الناشىء « المدردح » اختص بقضايا النساء وبمقابلة النساء . .

والمكتب له زبائن من كل الطبقات . وبالاخص الطبقات الراقية . وعلى هذا كان المحصول النسائى الراقى وفيراً . من كل سن ومن كل

فن . . والاستاذ شكرى يتأثر بالقدوة إلا عنـد ما تخالف سليقته وطبيعته . فهو أيضاً « دغرى » فى عمله كاستاذه الكبير . يؤديه أكمل الاداء . ولكنه كان ظريفاً خلاباً مع السيدات فى المكتب بحكم سليقته وطبيعته . وكان سعره فى هذه السوق رائجاً . .

وكان من الممكن أن تنشأ عواطف وأن تتمكن عواطف . وكان من الممكن أن يتخير المحامي الناشىء حباً راقيـاً . أو زواجاً راقياً . ولكنه كان أسير الفتاة القاطنة فى المنزل نمرة ١٩ . . ومن هذا تعرف شيئاً من خلال وغريزة هـذا المخلوق الغريب . وأزيدك بياناً فأقول إن الشاب ديمقراطى متطرف . وسترى فى الحلقات التالية كيف تكونت عقيدته السياسية ضد الحكم وضد الحكومة وضد الاعتدال وكيف لعب دوراً له قيمته فى فترة وجيزة فى خضم الحياة العامة

إذن كانت « ثروت » الساقطة فوق الجميع . فوق الجمال الفاتن ، فوق الطهر المفروض ، فوق الحسب والنسب ، فوق الثروة والجاه ، فوق حاضر الشاب ومستقبله . .

وأنت إذا استطعت أن تناجى دخيلته عن السر فى هـذا الشذوذ وفى هـذا التعصب لاجابتك دخيلته اجابة حازمة جازمة : انه من أجل الدموع ومن أجل الآلام . .

والشاب رغم مزاياه النفسية الروحية من أسرة كبيرة اسمها وحده رأس مال كبير . ولكنه رغم ذلك كان بطبعه عدواً الارستوقراطية . وعدواً للنعيم ، وصديقاً وفياً للبؤس وللشقاء . .

شئت أن تقبل هذا أم لم تقبله فنحن لا ندافع عن الفتى ولا نرسم

لك المثل الاعلى مستمداً من شخصيته . وانما نرصد الواقع ونحلل ناحية من نواحى مخلوق من مخلوقات الله ..

وها هو يستقبل فى غرفة عمله بالمكتب نماذج الجمال ، ونماذج الحرير الناعم ، ونماذج الماس الخاطف للابصار ، ونماذج التهذيب والثقافة النسائية ، ولكنه رغم كل هذه المغريات والمحرضات لا ينسى أنموذجه الوحيد : قاطنة المنزل نمرة ١٩ ..

مثل هذه الحالة العقلية الشاذة يزيدها شذوذا الاعتداد بالنفس . ومحامينا الناشىء كان معتداً بنفسه ــ لدرجة تقرب من درجة الغرور . فكان من المستحيل ان تضمن له الشفاء . وكان من المحتم ان نتركه لمشيئة الاقدار

. . . .

لا نتعجل تفاصيل المقابلات النهارية . فقد وعدت الفتاة الغامضة صديقها فى اليوم التالي أن تكون صافية المزاج . وقد برت بوعدها فكانت مقابلة ثم كانت مقابلات . ولا يعنينا ان ندون هنا التافه من أمرها وأمره . وانما يعنينا أن نذكرك بتلك المفاجأة الحادة التى بدأت بدور عصبى عنيف ثم انتهت بغفوة أو اغماءة على الصدر . ولعلك تذكر أيها القارىء ان السبب الظاهر كان عرضها الصور الفوتوغرافية على صديقها وبالاخص عند ما كشفت له الغطاء عن جنسيتها فعرف أنها « أرمنية » ، وعن اسمها فعرف أنه ليس « ثروت » . وقد فاتنا أن نذكرلك أنها لفظت اسم «ثروت» فى الوقت الذى كانت تخرج فيه من ملف أوراقها وتذكاراتها صورة فوتوغرافية لضابط وسيم جميل ،

وشلت النوبة العصبية يدها عن هذه الصورة الفوتوغرافية فبقيت فى مكانها ثم كان ما كان . .

تاريخ ...

« ج . ابيكيان » سرى من سراة الارمن فى القسطنطينية . والارمن فى استامبول لهم مكانة اظن دعامتها الاولى هى المال ثم الثقافة . وللرجل بنت وحيدة وإخوة أشداء أقوياء بحسب والدهم وبجنيهاتهم فى المجتمع . والفتاة الوحيدة كانت مدللة عنى والدها بتعليمها وبالطواف بها فى عواصم أوربا . وكان الرجل كثير الحب لها يصطحبها فى غدواته وروحاته وزياراته . وكان لا يغفل عن زيارة السفارات والقنصليات التركية فى البلاد التى يحل بها حسب العادة المتبعة والواجب المتبع . وفى « باريس » تعرفت الاسرة بضابط تركى يغلب على الظن أن له اتصالا بدم مصرى . والسن تجذب اليها السن وخصوصاً فى بلاد الغربة بين المواطنين . ونقول لك باختصـار ان نوعاً من العاطفة « الطفلية » الابجدية نشـأ بين الفتى التركى والفتاة الارمنية . والفتاة الصغيرة من كل جنس ومن كل لون ومن كل بيئة حين تطالع فى كتيب الحب لاول مرة ألفه ، وباءه ، وتاءه ، تحتفر هذه الاحرف فى قلبهـا مخبأها فيختلط بها لحم القلب ودمه حتى تصبح جزءاً طبيعياً من اجزائه . ألم تلعب فى نشأتك مع صبية صغيرة لعبة من العاب الاطفال فى شوارع الحى وحاراته ثم نبت بينك وبين الصبية نبـات صغير ؟ سمه ما شئت أن تسميه : صداقة . ميلا . استلطافاً . عشرة . ثم تركت الحى صبياً

وافترقتما ثم مرت الايام والشهور والسنون ثم مر جيل ثم جيل ثم شاءت صدف الاقدار ان تجمع بينكما فى تلفون ، أو فى طريق ، أو فى مكان وقد كبرتما وخبرتما الدنيا ولكل منكما تاريخ ؟

ألم يحصل لك هــذا ؟ ثم ألم تشعر عند المقابلة ان الذكريات تدفع بالذكريات . وان ذكرى الصبي تكشف رويداً رويداً عن النبات الصغير فاذا به ينمو ويترعرع ويشتد فى لحظة . ثم اذا بثمرته تصعد من القلب إلى الشفتين فترتسم قبلة ! ؟ ..

ثم اذا بالقبلة تلد عاطفة . ثم إذا بالعاطفة تلد حباً ؟ !

هذا ما أسميه الحب المبعوث . .

ثم من العدل أن نعترف بأن حب الصغار هو أوفى أنواع الحب وأصدق أنواع الحب وأنبل أنواع الحب ! . .

ولم تكن فتاتنــا الارمنية ولا صديقها التركى صغيرين لحد التصوير الذى صورته لك فى استشهادى. وإنما أود أن أقول ان الحب بينهما طرق الباب فى « باريس » ثم مرت الايام والشهور فلما تلاقيا فى « الاستانة » انفتح الباب واستقبل الضيف العزيز بكل ترحاب وبكل سرور . .

٭٭٭

وشهدت متنزهات « استامبول » وفردوس استامبول وجنــان استامبول مشاهد هيــام تستحق التحليل والتسجيل . ولكنى اخشى أن ينسى القراء بطلهم المصرى فى هذه القصة فأنا أستميحهم عذراً وأمر على الحوادث مراً سريعاً . .

دق ناقوس الدمار والخراب فى « تركيا » وانفجرت قنبلة الرعب

والذعر فاذا بها تعلن اشتراكها فى الجريمة الانسانيـة الكبرى : الحرب العظمى ! . .

لم تكن علاقة الفتاة بالفتى مهددة فقط بتنافر الدم ، وتناقض الدين ، ولم تكن مشكلة الارتباط الشرعى الطاهر بينهما هى مشكلة هذين العنصرين ، فهما من الذين يرون أن الحب هو الدم وهو الجنسية وهو الدين . وانما كانت النكبة النكباء أنها ارمنية وهو تركى ! . . .

والعداوة بين العنصرين قديمة التاريخ ...

وزادتها الحرب تمكناً وتأصلا فأخذت بالفعل مظهراً من مظاهر سفك الدماء . . .

وحين أنذر الفتى الضابط بالاستعداد لتلبية نداء الوطن فى مختلف الميادين . وحين تحقق لديه أن ساعة الفراق أوشكت أن تدق دقاتها الأليمة . ارتفع فى مجرى قلبه وقلب صديقته منسوب الحب وفاض . والحب من شأنه الشجاعة والاستهتار ومن شأنه رغم كل احتياط أن يسفر وأن يتجلى . . .

وكشفت العين الارمنية الغدارة الجبارة المتطايرة الشرر الحاقدة ملتقى العاشقين فلم تغمض الجفن بل اندلع منها لهيب النار . . .

وفى عصر من « عصارى » اللقاء وقد أخذ قرص الشمس يودع النهار هرولت الفتاة إلى مكان اللقاء فى الضواحى الحنونة الحساسة التى تشمل العشاق بحمايتها . وتحول بينهم وبين الانظار . . . هرولت وكانت قد اعتادت أن تظفر بصديقها فى الانتظار . فراعها أول ما راعها أنه ليس هناك . . . هتفت فلم يهتف أحد . . . وتوارى قرص الشمس

فقصدت الى شجرة اعتادت أن تركن إلى جذعها هى والصديق المتخلف. فاذا بها تصطدم بشىء فتسقط على وجهها. ولكن لم تلمس شفتاها الارض وانما لمستا . . .

. . . لمستا شفتى الضابط المذبوح ! ! !

وكانت قبلة الوداع ممزوجة بالدم الاحمر القانى ومصحوبة بصرخة هى أشقى ماعرف التاريخ . . . .

. . . .

☆☆☆

فى الغرفة عينها

وفى القيلولة وقبل الغروب

وقد جلست الفتاة على ركبتى الاستاذ وطوقت عنقه بذراعيها تبكى بكاء مراً هادئاً ذليلا وقد حرقت أنفاسها وجهه بنارها وسعيرها.

كانت تروى له الواقعة التى رويناها لك من أول « ج. ابيكيان » حتى قبلة الوداع

وكانت دموعه هو تجارى دموعها هى

وخيم سكون عميق

وقطع الاستاذ السكون بقوله : كفى وحسبك !

قالت : وماذا بقى ؟

قال : لا شىء

قالت : أعرفت من كانت الفتاة الارمنية ؟

قال : لعلها أنت !

قالت : نعم !

قال : ومن كان الضابط المسكين ؟

قالت : كان « ثروت »

هنا فهم الاستاذ انها لم تحمل من ذكريات الذبيح إلا رسمه واسمه ! . .

وهنا أدرك لم انتهت مأساة التشنج الاولى فى أول مقابلة بقولها : « أنهم ذبحوه . جاء دورى . احمنى من السكين ! . . »

قال وقد لمعت عيناه لمعة البطولة والمروءة : هل لا تزال تطاردك السكين ؟ ؟

قالت : بالله لا تذكرنى بتاريخ المطاردة وأهوالها وشقائها . كانت نهايتها هذه البؤرة وهذه المقبرة ! . .

قال : ان فى مجال الاصلاح لمتسعاً للجميع ؟ . .

قالت : هيهات ! ..

قال : عدينى . .

قالت : انى لا أعد . انى نذرت نفسى للشقاء وللدموع ! . .

قال : انى أعشق دموعك . فهيا هيا نستروح فى الهواء الطلق ونحاول النسيان . . .

☆ ☆ ☆

وكانت نزهة مسائية لعب أكثر أدوارها الصمت الطويل والتفكير الطويل . .

وامتازت بظاهرة أدنى وصف لها أنها عفيفة . .

ولعل الذكريات الاليمة والحوادث العنيفة ، والموقف الجدى الذى تمخضت عنه هذه الذكريات والحوادث ــ لعل هذه العناصر الثلاثة قد رجعت بالفتى والفتاة إلى العهد العذرى الخيالى البرىء

ونحن الآن فى أواخر سنة ١٩١٨ ..

والقاهرة وضواحيها مزدحمة بالعساكر الانكليزيين والاوستراليين . وغريب ان يرد ذكرهم فى هذه اللحظة . .

سلوا « ثروت » المسكينة فهى سبب هذه المفارقات ..

سلوها : لماذا تضطرب حين تلمح وجها « أوستراليا » ؟

فهى تجفــل فجأة وتلتصق بصديقها التصاقا وعيناها زائغتان فزعتان ...

سلوها : لمــاذا تقترح على صديقها بالحاح أن يبعد بها عن وجوه وسحن « الاوستراليين » ؟ ؟

لم يجد الاستاذ فى أول الامر ما يلفت النظر من هذه الناحية ...

فهو نفســه عانى كثيراً من رذالة « الاوستراليين » وتحكك « الاوستراليين » وتعدى « الاوستراليين » ولئن أحس « الرجل » بالاشمئزاز منهم « فالمرأة » أولى بهذا الاحساس . .

ولكنها بالغت فى الجزع . فقال لها :

ــ أتكرهين الاوستراليين ؟

قالت : أخشاهم . .

قال : ولهذا الحد؟

قالت : نعم . .

قال : ولم ؟ خبرني !

قالت : لم يأت الاوان ..

☆☆☆

عندما يكشف الرجل العاشق فى المرأة المعشوقة ــ وخصوصاً من هذا الصنف ــ بطريق الصدفة أو بحكم المعاشرة الطويلة ، خلة نبيلة ، او تاريخاً حزيناً ، أو ناحية مظلمة ، تنبعث من أقصى نفسه عواطف طيبة فياضة ..

« شكرى » محا من ذهنه نهائياً صورة المرأة قاطنة « البنسيون » بالمنزل رقم ١٩ ..

محا من ذهنه نهائياً صورة « الليل » وانطبعت فيه صورة النهار : « فى القيلولة أو قبل الغروب » ..

أو قل باختصار محا من ذهنه صورة « ثروت » وأحل محلها صورة الفتاة الارمنية كريمة « ج . ابيكيان » ..

وخريج المدرسة فى مستهل حياته « التجريبية » فى هذه الدنيا المتلاطمة الامواج يعتريه ويعترى زملاءه وأقرانه فى السن وفى التجربة نوع من حمى الخيال والفلسفة الساذجة والمشاعر الانسانية ..

هذا « المصلح الاجتماعى » الصغير توكل على الله وصمم ان ينشل الفتاة الضائعة ..

ها هو يقرأ معها الجرائد والمجلات والكتب ويناقشها فى علم النفس وفى السياسة وينتقل بها من بحث فنى ، الى بحث صناعى ، الى بحث ادبى .

فاذا سألته : لم هذا العناء ؟ أجابك : أريد أن أبعث استعدادها من القبر الذى دفن فيه . .

وها هو يزج بها فى أوساط راقية فيطوف معها الحفلات الخيرية والاجتماعية الادبية العلمية . فاذا سألته : ماذا ترمي بهذا ؟ ؟ أجابك :

ــ أريد أن أذكرها بوسطها الماضى وأبعدها عن وسطها الحاضر..

ثم ها هو فى ذات يوم من الايام يفاجئها بهذا الاقتراح الطريف : أن تمضى معه أسبوعاً فى الريف ؟

في الريف...

من العدل أن نقرر أن الفتى نجح نجاحاً ما فى أساليبه الاصلاحية هذه. لقد أخذ رونق الفتاة « النظيفة » يسطع على وجهها وأساريرها وأخذ يسود حركاتها وأحوالها وأخذ يطارد ظلام « البنسيون » الذى لم أشأ ان أسميه..

وفى عزبة من عزب الريف نزل الصديقان فى ضيافة أحد أقارب الاستاذ الاعزب. فترك لهما العزبة لينعما منفردين لايعكر صفو وحدتهما مخلوق..

ويا للدهشة ؟!

ان « ثروت » الماجنة طريدة العيلة ربة منزل لا تجارى: تجيد الطهى والكى وقد حملت أدواتها الصغيرة ونسيجها تصنع « جرسى » لصديقها العزيز..

وها هي تجمع نساء القرية فتجرى عليهن الاحسان. وقد سحرتهن سحراً أخاذاً بظرفها ودعتها. فهن عند اللجاج لا يقسمن الا باسمها ولا يحتكمن إلا لحكمها وأمرها..

وها قد تطورت « ثروت » الماجنةفهى فى الصباح الندى. وهى فى الليل البلبل الغرد. وهى النشطة المتعشة الصحيحة. وهى فى أسبوع الريف رمز السعادة فى كل حال!

ولما دنا موعد الرحيل بكت البكاء الامر وكانت ساعة السفر ساعة النواح. وقد تظاهر نساء القرية يودعنها بالدموع وبالدعوات الطيبات ؟..

وفى القطار همس « شكرى » فى أذنها :

ــ أسعيدة أنت ؟

ــ .. لدرجة الخوف ، دعنى أشكرك ؟

ثم أخذت تقبل يديه من شدة السرور وتقاطرت من عينيها بعض الدموع !

ربما ...

ان ذكرى الرحلة الريفية كانت أبداً منطبعة فى ذهن هذه المرأة الصغيرة، وكان يلذ لصديقنا «شكرى» أن يسمع عبارات الاعجاب برحلة الريف من فمها الانيق . ولــكن المسألة لم تكن فى نظر « ثروت » مسألة ذكرى وإعجاب فقط ، بل كانت أبعد مرمى ، وأدق مغزى . . .

كانت تتكلم عن الريف بحماسة غامضة . وكانت تسائله عن عزبة والده فى الريف بنزق وفرح ثم تعود وتغمض عين الاسى بذل ومسكنة وحسرة ؟ ؟

من العسير على الكاتب القدير أن يحلل هذا الطائف الطارىء على خاطر الفتاة . وبقدر ما تملك كفاءتنا الكتابية فى التحليل نحاول هنا أن نفرض عدة فروض : هل كانت الفتاة ترهب شيئاً رهيباً فى القاهرة فهى تذكر الريف وتحن الى الريف ؟ ربما . . .

هل بعث الريف من ماضيها شخصية الفتاة الصغيرة الكريمة النقية العاشقة فودت أن تعود سيرتها الاولى ووجدت من نفسها كريمة « ج . ابيكيان » ومن الاستاذ الضابط ثروت ؟! ربما . . .

هل خطر لها خاطر الزواج من « شكرى » ولكنها استدركته فقاست البعد بين مستواه الحاضر ومستواها الحاضر ؟ ولمست بيدها الباب الفولاذى الضخم الذى يحجب بين دنياها المفتوحة وبيته المصون المحروس ؟ ربما . . .

من أتعس الخواطر التى تمر على أذهان هذا الصنف من فرائس الحياة أن يفكرن فى الزواج من عاشق أو من محب ولهان . ولذلك يمر الخاطر بسرعة البرق وتمحوه آية الليل ؟ . . .

آية الليل ! ؟

آية الليل عند صاحبتنا « ثروت» وقد آن أوان الافصاح والايضاح .
كان ضابطاً استرالياً خشنا يقتحم بابها لا فى « القيلولة أو قبل الغروب »
كما كان يفعل « المتر شكرى » وانما فى الليل . .

و « شكرى » المحب الفيلسوف المصلح عاشق الدموع كان من
صنف العشاق الذين يحترمون الخصوصيات ويقدسون الخصوصيات
والذين يأنفون أن يتجسسوا أو يتحروا أو يفاجئوا . وهذه ناحية من
نواحى الحب تستحق هى الاخرى التحليل : ان العاشق الذى لايتجسس
ولا يفاجىء ولا يبحث لا يفعل ذلك عن غفلة أو نبل أو كرم اخلاق ،
وانما هو يشفق أن يبحث . . فيكتشف . . . فيتألم فيثور . . . فتتقطع
علاقة الحب ؟

لذلك هو يغمض العين متعمداً ، ويسد الاذن متعمـداً . وان كان
إحساسه الحساس يقوم مقام العين والاذن سواء بسواء

حدس العاشق لا يخطىء . وانما قلبه الطيب الفياض بالحب يطغى
على عقله وعلى بصره فهو يغفل أو يتغافل . ويعمى أو يتعامى . ويتعقد
موقفه ويصعب ان كان عشقه من نوع هـذا العشق . ولم يكن يملك
بوسائله حقوق العشاق المستأثرين . . .

أو بعبارة أصرح : هل يتولى «شكرى» الضعيف الموارد الانفاق ! ؟
ائن كان يفعل كان صاحب السلطان على كل النواحى . وان كان لايفعل
فبأى حق يتلصص ؟

هذا هو العذاب بعينه : محب محبوب ولكن غير قادر !

اذن عليـــه أن يحسن الظن وان يقبل المبررات وهو صاغر . فان ثارت كرامته ونخوته وجب عليه أن يكتم حبه ، وأن يسحق قلبه، وان ينسحب من الميدان

بطل الظلام ! . . .

« وثروت » هذه ماذا كانت مع بطل الظلام ؟

ظفر بها فى غير مصر فأحبها ومن حق كل مخلوق أن يحب . التقطها من الدنيا شريدة . طريدة . منكوبة . فظللها بحمايته ورعايته . وطاف بها فى كل مكان به طاف . ووقعت فى مخالب المرض مرات فكافح بمروءته ونخوته مخالب المرض وأنقذها مرات . وبكى لها وبكت له فأحبها عشقاً ، وأحبته وفاء . والبنت من أصل طيب فهى لا تغدر وهى لا تتنكر للأوفياء . . .

حتى اذا هبطا مصر عاشرته وساكنته ، ولكنه انتدب لمهمة عسكرية فى غير مصر فودعها على أن يعود ، انتهت الحرب أو لم تنته . فقرت بالمنزل رقم ١٩ فى مسكن أنيق . . .

وبرز « شكرى » فى نهاية فترة الغياب فأحبته الفتاة . ثم عاد الضابط الاوسترالى فوجدت نفسها بين نارين : نار الحب . ونار الوفاء ! . .

أفهمت كيف قسمت بينهما قسمة عادلة فحفظت لصاحبنا وقت القيلولة أو قبل الغروب . وحفظت لصاحبنا الآخر وقت الظلام ؟ ..

أفهمت كيف كانت تفزع لرؤية الاوستراليين وذكرى الاوستراليين وكيف كانت تسأل: أتكرههم؟ فتجيب: أخشاهم؟

أفهمت كيف نعمت برحلة الريف وسعدت برحلة الريف وكيف لمحت بذل وانكسار الى أمنية الاستقرار بالريف؟

ويل المرأة الطيبة إن أحبت غراماً — وأحبت اكراماً...

ويلها ويلها ان اعطت لهذا قلبها — ولذاك ضميرها ووجدانها...

ويلها ويلها من معركة القلب الحساس — مع النفس الحساسة...

أيهما تقتل: أهى العاطفة — أم الواجب؟

أيهما تقصى: أهو المحبوب — أم المنقذ؟

يقول بعض المتطرفين فى أصول الهوى إن الموقف لا يحتمل التردد فالحب أقوى المشاعر. وهو يكتسح ماعداه ويتغلب على سواه!...

وعندى أن البت برأى غير معصوم من الخطأ. عندى أن المسئلة نسبية يرجع الحكم فيها الى استعداد المرأة وكمالها أو نقصها، وعند ما أقول الكمال أو النقص انما احصره فى دائرة ضيقة. وفى المرأة الساقطة كمال وفيها نقص. فيها ناحية مرذولة، حكمها حكم سواها. وفيها ناحية طيبة، جديرة بالاجلال على كل حال...

المرأة فى هذا الموقف جد تواقة الى الابقاء على الخصمين المتنازعين والمغرمين المتنافسين. وهى وشأنها وسرها فى توزيع الحب على هذا والوفاء على ذاك...

دعنى من الحكم العام الذى قد تراه والذى قد لا اراه. انى انقذك وأنقذ نفسى من هذا الحكم النفسانى فأقول ان «ثروت» كانت

عادلة . فهى لا تود ان تضحى بهذا ولا تود ان تضحى بذاك ؟ !

ولكن ما العمل اذا كشف أحد المتبارزين موقع خصمه ومزاحمه ؟

ما العمل اذا تصادما وارتفع الستار ؟ ! . .

ما العمل اذا طلب اليها بلهجة الحزم والجزم ان تختار ؟

☆☆☆

وقد تصادم العاشقان فوقعت الفتاة فى الفخ . .

وتخلى كل منهما عنها . . .

وفترة تخلى العشاق فترة أليمة على العشاق وعلى المشوقين . . .

والفتاة فيها شىء من الكبرياء فصمدت للصدمة حتى تفكر وحتى تبت ؟

ومن حق هذا الضابط أن يثور . فهو رجل بمعنى الكلمة . ضحى لها وأنفق عليها وحماها ورعاها . ففى الموقف عنصر عنيف من عناصر الجحود . . .

وقلنا فيما مضى إن الحب هو حمى ، وان الحب هو جنون . وهل يرضيه أن يعلم بأن الفتاة لا تجحده ولا تتنكر اليه . مادامت لا تحبه ؟

والمحب أنانى : يريد أن يستولى على القلب والجسم والعقل والذهن والنفس والحواس جميعاً . ويأنف أن يظفر بنصيب وان يظفر غيره بنصيب . . .

المحب يمقت الشركة ويأباها . . .

ولئن قبل الشركة فاين تكون رجولته ؟

أضف الى عناصر هذه النار المشتعلة فى صدره أنه ضابط . أنه

جندى وعسكرى . ولرجال الجنـدية والعسكرية اعتزاز بالكرامة لا يدانيه اعتزاز . الشرف العسكرى عنصر يمتزج بكل دور من أدوار حياتهم . فى ميادين الحرب كما فى ميادين الحب . اذن لا بد من موقعة فاصلة فلننتظر كيف تكون . . . .

خذلان ...

أما فتاتنا « شكرى » فكانت صدمته لا تقل عن صدمة الضابط عنفاً وقسوة . هو يجهل التفاصيل ويعلم فقط أنه كان مخدوعاً وانهـا كانت ولا تزال تحب سواه

اذن واخجلتاه من زيارة القيلولة أو قبل الغروب !

واخجلتاه من الدموع الجارية على وجهه وعلى صدره !

واخجلتاه من رحلة الريف وهناء رحلة الريف !

واخجلتاه من ذلك الخيال الراقى الذى رسمه فى ذهنه للفتاة التعسة !

ثم واحسرتاه على تفويته للفرص التى ولت وادبرت . . .

واحسرتاه على أنه زل وسقط فى احضان فتاة ساقطة . . .

اذن سحقاً للحب الراقي وللحب الوضيع . . .

ولكنه يحب ! . . .

اذن فليفكر طويلا . وليبك بكاء ممزوجاً بالخجل من البكاء ! . .

على انه وسط هذه اللعنات يراجع ضميره فيقول : لا شك أنهـا تعسـة منكوبة . ولئن كانت تحب سواه فهل يمكن أن يكون الحب محل مؤاخذة أو يمكن أن يكون جرماً وجريرة ؟ !

وبأى حق يطالبها بقلبها . وما هو الثمن الذى أداه ؟ !
أما يرضيه أنها ترتضيه ؟..
إنها ظريفة لطيفة لا تكرهه . وانها تسمح له بأن يتلقى الدموع وأن يتلقى الاسرار ؟ !
ولـكنه يحب !
والحب أنانى . .
فلم تخدعه . ولم تغرر به . ولم تستهويه ؟ !
الانسحاب هو نعم الجواب . .
وليقتنع بالتجربة الاولى فى عالم الغرام ..
ليأخذ منها عظة ودرساً . .
ولـكن نقطة واحدة تمس رجولته ، منافسه من جيش الاحتلال او من جنس جيش الاحتلال . فى الموقف عنصر من عناصر الجبن والتقهقر . فتظن الفتاة ان الانسحاب هو بمثابة فرار ! ؟
لا !
اذن فليتطور هذا الخذلان العواطفى بالنعرة الوطنية السياسية ، وليبلع الفتى بشره بذرة الثورة ضد غاصبى وطنه ، وغاصبى محبوبته ، ولتنبت هذه البذرة نباتها . ولترسل شجرها بأغصان وفروع تصلح فيما بعد وقوداً وناراً ! ! !

✡ ✡ ✡

ومرت أيام وليال والفتى يقتحم الاوساط السياسية فى بلده ، وكانت ثائرة لقضية الوطن . وكان من فرط ثورته لا يروقه الاعتدال ولا اللين

ولا المرونة . بل كان داعيـــة من دعاة التطرف الذين لقبهم مواطنوهم بالخياليين المجانين ! ! !

وكان استعداده الذى مهدنا له فى الفصول الاولى يناسبه هـــذا التطرف بعد هـــذه اللطمة ، بحيث كانت فتيلا اشعل القنبلة الدفينة فى أحشائه فانفجرت ودوت دوياً . . .

واطلت سنة ١٩١٩ بوجهها اللعين على مصر البائسة ، وكانت قـــد ا كتوت بنار السلطة العسكرية من مصادرة مواطنيه الآدميين وسوقهم قبل ذلك الى ميادين الردى ، ومن مصادرة ارزاقهم بأبخس الأثمان . . .

ووجد الفتى من هذا الخضم السياسى الذى غمره ما رفه من آلامه نوعا ما ، وان كانت فترات القيلولة أو قبل الغروب تفترس قلبه كلما مرت الذكرى وتجلت الخواطر

هذه مواقف الثلاثة شرحناها وحللناها بايجاز وغموض

... ...

... ...

ترجيح !...

فى الساعة السابعة من مساء يوم من أيام فبراير سنة ١٩١٩ دخل « عم عبد الله » فراش المكتب على الاستاذ « شكرى » فقال له : ان سيدة بالباب !

ورفع « شكرى » رأسه من الدوسيه الذى يحدق فيه وأذن بالدخول بغير اكتراث

الزائرة فتاة شاحبة يلوح على وجهها شيء من الاصفرار. واصفرار الآلام او المرض نوع بديع من انواع الجاذبية والجمال

تقدمت الزائرة بخطوات مضطربة مرتبكة . فنهض الفتى مهتزاً يستقبلها بأدب وشجن ثم همس قائلا :

— ثروت ؟

أجابت ببرود : هى أنا . . .

قال : تفضلى . . .

قالت : عندى حديث طويل أو قصير . والمكتب لا يناسبه

قال بدهشة : أنخرج سوياً ؟ !

قالت : ممكن

قال : اذن اجلسى وانتظرى قليلا

وأتم « شكرى » عمله ثم استأذن استاذه وأشار اليها بأن تسبقه على الباب ثم لحق بها وركبا مركبة صامتين والسائق يسوق الى الامام وهو لا يسأل وهما لا يرشدان

وتنبهت الفتاة قبل ان يتنبه الفتى فقالت : الى اين ؟

قال بضعف : الى حيث تشائين

قالت : أقترح ان نذهب الى حلوان

قال : أمرك . . .

وأمر السائق بأن يتجه الى باب اللوق

وركبا القطار ووصلا الى حلوان وسارا على القدمين حتى ظفرا بمكان خال فى قهوة خالية من الناس فجلسا

قالت بلهجة الجد : انى جئت انذرك !

فقال بلهجة التهكم : مشفقة أم كارهة ؟

قالت : بل مشفقة ...

قال : على أم عليه ؟

قالت بلهجة صادقة صريحة : عليكما معاً !

قال : اذن نحن شريكان ؟

قالت باللهجة عينها : نعم !

قال : امقت الشركة ، وارفض الانذار ! ! !

☆☆☆

سكتت الفتاة هنيهة ثم قالت : اريد ان اشرب خمراً

قال : ان الخمر مفسدة

قالت : ولكنها عندى تبعث أصدق الاحساسات وأصدق الاقوال ، وأريد ان افضى اليك باشياء صادقة ورهيبة !

قال : ليكن

وأمر لها بالشراب فشربت مثنى وثلاث ورباع . . .

قالت : أسقطت فى نظرك نهائياً ؟ !

قال : لا الومك . وانما سقطت أنا فى نظر نفسى

قالت : اذن أمحى كل تاريخى معك من ذهنك ؟

قال : ليست لى عليك حقوق . . .

هنا اعتدلت فى جلستها والقت بالكوب الفارغ وقالت : اسمع يا « شكرى » ! أتذكر جزعى من رؤية الاوستراليين ؟ ألم أكرر قولى انى لا أكرههم بل اخشاهم ؟ !

قال : أذكر

قالت : اذن فاعلم أنى جئت أنذرك . انى أخشى عليك !

قال : اطمئنى . لقد انسحبت فتمتعى

وكأنها اعتبرت هذه العبارة اهانة فانتصبت كاللبوة وزأرت : دنىء !! أظننت انى جئت استميحك عذراً لانى أحب وأرجو منك أن تخلى الطريق . دنىء ! !

قال مستخفاً : اشكرك على هذه التحية

قالت : اذن لن يكون الحديث بيننا طويلا . كلمة واحدة أو كلمتين : احذر الضابط !

قال : كم أود ان أكون أول ضحية . . .

قالت : وعلى مذبحى ؟

قال : كلا ! بل على مذبح بلادى !

قالت وقد اطلت من عينيها الذابلتين الدموع :

— انا الساقطة فى نظرك ونظره ونظر الناس ونظر ابوى واخوتى واسرتى وعشيرتى من قبل . لست آسف على شىء ، انما انا امرأة عنصرى نبيل . وقد جئت أؤدى واجباً فقد تكون هذه آخر مقابلة بينى وبينك . احبك واحب الرجل . أحبك ولم تقدم لى معونة ولم تبذل ولم تضح . وأحبه لانه فعل كل هذا . صدقت أم لم تصدق . فلست اطمع فى استئناف العلاقة . وتستطيع أن تستنتج مع من قلبى ومع من ضميرى ووجدانى . وكم حاولت كبريائى أن تصدنى عن هذه المقابلة وعن هـذا التصريح !. وقد نجحت مراراً ولكنها فشلت هـذه المرة . لأنى امرأة منحوسة ونحسى ينصب على رءوس عشاقى . ولانى أخشى أن يجرى عليك ما جرى على « ثروت » وأن أقبلك أنت ايضاً قبلة الوداع ! . . .

نطقت بهذه العبارات بروح وحماسة . وهبطت هذه العبارات برداً وسلاماً على قلب الفتى المتقد بالنار ، فهدأ واستراح وانتزع يدها وطبع عليها قبلة

والعشاق الاطفال يأسرهم بسرعة البرق الكلام اللين المصوغ فى قالب الاعتذار أو قالب الايضاح والبيان . وكأن « شكرى » أراد أن يستمتع بتفاصيل هذا النوع فكشفت له بتدفق عما بيناه . وانتهت المقابلة على احسن ما يكون . وقد عاد بها الى القاهرة مزهواً فخوراً لانه استعاد القلب واستعاد كرامة العشاق ! . . .

ولكن بقى فى الظلام شبح التهديد . أما هو فكان لا يأبه ولا يكترث . وأما هى فكانت تحميه بالقبل المتواليـة وتصف له وسـائل التحصن والحذر وعيناها مفعمتان بالدموع !

سنسافر معا ...

فى ساعة القيــلولة وساعة قبل الغروب دق جرس « البنسيون » فهرولت « ثروت » بنفسها الى الباب ظانة أن الزائر هو « شكرى »

وما فتحت الباب حتى وجدت أمامها الضابط !

حياها فردت التحية

واتجه الى غرفتها بدون استئذان كما اعتاد أن يتجه !

فسارت وراءه

قال لها : كيف حال المصرى ؟!

قالت : لم أره غير مرة واحدة

قال : وهل لا تزالين تحبينه ؟

أجابت : يكفيك ان اقول انى لا ازال احبك

قال : شكراً . هونت على مهمتى !

قالت : أية مهمة ؟

قال : سنسافر معاً بعد يومين اثنين !

قالت : الى اين ؟

قال : الى وطنى . الى اوستراليا

قالت : أجاد انت ؟

قال : كل الجد !

وجمت ولـكنها تمالـكت ثم قالت : ولـكن كيف استطيع أن اعد حوائجى فى هذا الوقت القصير ؟

قال : أما حوائجك فلا يحتـاج اعدادها الى وقت طويل . وأما الباسبورت فدعى امره لى

قالت : ولم هذا السفر المفاجىء ؟

قال : صدر الامر بتسريح الفرقة !

قالت : دعنى افـكر

قال : اتترددين ؟

قالت : وأى غرابة فى هذا ؟ من مصر الى اوستراليا . اليس الامر يحتاج للتفكير ؟

قال : عجيب ! ما كان عهدى بك ان ترددى . فيجب ان تبتى !

قالت : لن أسافر

قال : نهائياً ؟

قالت : نهائياً

وبكت . ولست أدرى . اكان البكاء من اجله أم من اجل الموقف الدقيق والمأزق الحرج ؟

وأشعل هو سيكارته ثم قال : اذن لنشرب ؟

وتناول اقداح الشراب سريعة متتابعة وهو يتأوه ويتلوى ويكظم الغيظ ، وقد ثبت لديه ان « المصرى » هو العقبة الكؤود

☆☆☆

واسترد الضابط توازنه واستعاد بروده ثم اخذ يكرر الطلب بكل أنواع صيغه وأساليبه ، من رجاء ، وإلحاح ، وتشدد ، وتوسل ، وتذكير .

ولـكنها كانت أبدا مصرة بكل أنواع صيغ الاصرار وأساليبه ، من ضعف ، واعتذار ، وشدة

ووجم الضابط وجمة طويلة ثم زفر زفرة طويلة ثم قال : ان السفر بعد باكر وباكر هو يوم الاعداد وهو يوم مشحون بالعمل . لم يبق إلا هذا المساء وهذا الليل ، فليكن مساء الوداع وليل الوداع . ويكفيني وقد رفضت رجائي أن أمضيهما معك ولعل الايام المقبلة تجمع بيننا فيها . . .

وقامت « ثروت » فارتدت ملابسها وهي تعلم أن تمضية هذا الوقت مع الرجل الوفي المخلص هو واجب هين عادل

وذهبا الى الجزيرة وقد ودعت الشمس الافق ، وابتدأ الظلام يرسل طلائعه على الدنيا المضيئة . . .

السفر !...

كان الأستاذ « شكرى » فى اليوم التالى بالاسكندرية فى قضية ، وعاد بعد الظهر مضنى من وعثاء السفر ، فلما استراح قليلا حمل محفظته وتوجه الى المكتب . ثم طلب فنجاناً من القهوة وفتح جريدة « المقطم » كعادته ليقرأ أخبار المحليات . . .

وكان قد أمر الكتبة بأن يحضروا له بسرعة عمل الغد . وبينما هم منهمكون فى تنفيذ اوامر الشاب المحبوب اذا بصرخة تدوى فى ارجاء المكتب وتهز أركانه وقد صدرت من غرفته . . .

بادر الكتبة فزعين الى النجدة فوجدوا الفتى مغمى عليه وقد سقط من كرسيه وجريدة المقطم بجواره

استدعى الطبيب فى الحال وعملت الاسعافات السريعة ، وكان له زميل من سنه يعرف من خصوصياته الشيء الكثير وقد لفتت نظره الجريدة فاخذها وقرأ فيها ما يأتى :

انتحار ضابط اوسترالى وقتل فتاة

« عثر البوليس أمس الاول أثناء تجوله فى نواحى الزمالك بعد نادى الجزيرة البريطانى حوالى الساعة الثامنة بجثتى ضابط اوسترالى وغانية عليها مظهر المصريات ، وقد اخترق الرصاص قلبيهما فسقطا صريعين . وقد وجد خطاب بجانب الجثتين كتبه الضابط المنتحر وذكر

فيه أنه بسبب صدور الأوامر اليــه بالعودة الى الوطن وعدم إمكانه مخالفة هذه الاوامر ولأنه يحب صديقته هذه فقد قرر أن ينتحر فاطلق عليها الرصاص أولا ثم أطلقه على نفسه . وإنه يودع أصــدقاءه وأهله ويطلب الغفران من الله »

« أما الضــابط فاسمه « جيمس ريد » كما ذكر فى خطابه . وأما الفتاة فاسمها « ثروت » ويظهر انه اسم محرف

« وهكذا مصارع العشاق . . . »

الى اسيوط !...

الى أسيوط !...

فى القاهرة ناد فخم للالعاب الرياضية كان ولا يزال أرقى النوادى الرياضية المصرية وسطا وحيثية. مؤسسوه كانوا فريقاً من كبار الطبقة الارستقراطية المثقفة الموسرة . واعضاء لجنته العليا من الوزراء وأمثالهم

كان « شكرى » عضواً فى هذا النادى . وكان من غواة « كرة القدم » وفريق « كرة القدم » فى هـذا النادى كان أقوى الفرق المعروفة . . .

فى قطار الليل الذى يقوم من محطة العاصمة حوالى الساعة الثامنة مساء احتل فريق النادى مركبة من مركبات الدرجة الثانية ووجهته أسيوط لمباراة ناديها الرياضى . وشوهد بين أفراد الفريق المسافرين « شكرى »

ورحلات فرق الكرة فى النوادى والمدارس رحلات ممتعة حقاً . هى عبارة عن ضحكات من القلب . واعفنى بعد ذلك من الوصف . هى المرح وهي السعادة وهى الهناء وهي الطفولة الفتية بكل مافيها من سذاجة وصفاء وعدم شعور بالمسئولية . . .

و« شكرى » كان الثرثار اللبق الحاضر البديهة السريع النكتة ، وكان المورد العذب والمصدر العذب فى كل رحلة . . .

ولكن ، يا لخيبة الامل ؟!

كان هذه المرة جامداً كالحجر ، بارداً كالثلج ، شاحباً شارداً كمدمنى المخدرات . . .

وحاول اخوانه أن يحركوه بنكاتهم الظريفة ومجونهم البرىء فكان ينظر ولا يتحرك

قال الصديق نمرة ١ : انت جوعان ؟ !

وقال الصديق نمرة ٢ : انت مفلس ؟ !

وقال الصديق نمرة ٣ : انت قتلت قتيل ! ؟

وانطلقت العبارة الاخيرة كالسهم أصابت فؤاده فصرخ صرخة داوية واردفها بلفظة فيها كل الوجيعة : نعم ! !

☆ ☆ ☆

صدق « شكرى » اذ صرخ وقال : نعم

ألم يكن هو القاتل حقاً ؟ !

لولا انه كان طارئا طرأ على حياة قاطنة القبر ما احتواها القبر !

كانت عادت الى أحضان صديقها ومنقذها فتبعته إلى حيث شاء ، وتزوجته أو عاشرته ، كما يشاء ، وتمتعت بالحياة ولم يغيبها الظلام !

نعم . كان هو القاتل لا القدر !

وما هو جزاء القاتل فى عرف العدل لا فى عرف القانون ؟ ما هو جزاء القاتل فى عرف الواجب لا فى عرف المسئولية الوضيعة ؟ ما هو جزاء القاتل فى عرف المحب الولهان لا فى عرف الحيوان ونصف الحيوان ! ؟

أن يختفى من العالم وان يرقد بجوار الضحية ! طائعاً مختاراً يستصدر الحكم على نفسه من ضميره ، وعلى حياته من وجدانه ، ثم ينفذه بيديه فى روحه ، ثم ينتهى ان كان رجلا وكان شجاعا . . .

وإن « شكرى » لرجل ! وانه لشجاع ؟

اذن علام التردد ؟ وعلام الابطاء ؟

هذا القطار يسير بسرعة البرق، وهذه النافذة يستطيع أن يقفز منها قفزة واحدة فيصل بالسلامة الى النهاية !

ولكن من يرقده بجوارها ؟ من يعلم بأمره وأمرها ؟ من يضم عظامه الى عظامها ؟ من يشيعه الى قبرها ؟

فلينتظر قليلا ، حتى يكتب رسالته ، ويترك وصيته ...

☆☆☆

ويفيق « شكرى » من نوبته الجنونية فيجد إخوانه حوله ذاهلين جزعين ، وقد أسعفوه بما لم يشعر به وبما لم يحسه . فينبس متوسلا :

— دعونى أنم

ويصدق الاخوان هذه الدعوى الكاذبة فيتركونه وحده . ولو صدق لقال : دعونى أبك . . . .

. . . .

الله ! ...

« يارب ! ... »

هتاف صدر من أعماق نفسه واهتز له كيانه الجسمى والذهنى أى اهتزاز . وكأنه شعر بشىء من الراحة فى هذه النجدة الربانية وفى هذا الملجأ العلوى الروحانى الخفى ، فأخذ يكرر الهتاف و يضغط بيديه على

صدره وعلى قلبه وعلى رأسه ضغطاً عنيفاً بقسوة وشدة ، فيصدر الهتاف بجرس صوتى مكتوم حزين تصحبه زفرة حارة نارية يتلقـاها بيدين متنا ثرتى الاصابع على وجهه فترد النفس النارى الحامي عليه فاذا به كله متوقد باللهيب ؟

كان لهذا الهتاف أثره السحرى على نفسه الثائرة المتمردة ، فهى تتراجع رويداً رويداً عن خاطر النافذة المفتوحة فى القطار السريع وعن خاطر القفز منها للحاق بعالم الفناء . وهى تخنع وتذل . ثم هى تتجه ببطء لشيء سمع عنه ولم يدرسه وهو : القدر ؟

وكأن الفتى المجنون قد استرد شيئاً من ذا كرته الضائعة فى هذا الليل البهيم . وبعد نكبته الفادحة . فهو ينشط بعد أفاقته ثم يطل من نافذة القطار . ولكنه لا يوجه نظره للارض التى كانت المرمى منـذ دقائق ، وانما يوجه نظره للسماء ؟

السماء ؟ ؟ ماذا فى السماء ؟

لا تسألنى أنا وانما سله هو ، وانظر اليه وقد رفع يديه بخشوع . وقد سقطت دمعتان بخوف واحترام وتقديس . وقد خرجت زفرة يحف بها أبلغ ما فى قلوب البائسين من مشاعر ومظاهر وعلامات الا كبار والاجلال . . .

السماء ؟ ؟ ماذا فى السماء ؟

آه . . .

أخيراً ، وأخيراً ايها الشاب المتمرد المغرور . المغمور ببحر الحركة المادية الطامي . المأخوذ بأنوار الصالات والبارات والمنتديات والمراقص

والملاهى . المختلس من عالم الروحانيات بضجيج المدنيـــة وعجيجها وتيارها القوى الاندفاع . . اخيراً واخيراً تتذكر ايها الشاب السماء .
ومن فى السماء ؟ ؟

الله ! . . .

نعم : هو « الله » ولا أدرى لم يبحث عنه الناس صعوداً للسماء . ولا يبحثون عنه هبوطاً للارض !

نعم : هو « الله » الذى لا نذكره فى الرخاء ــ ولا فى النعيم ــ ولا فى اللذة ــ ولا فى الراحة ــ وأنما نذكره فقط عندما نحتاج ؟ !

« عند ما نحتـــاج » ولست ازيد . ورتب على معنى « الاحتياج » و « ملحقاته » ما شئت ، من حاجة الى المال ــ وحاجة الى الشفاء ــ وحاجة الى السلوى ــ وحاجة الي الانقاذ

نعم : هو « الله » أيها الجحود ! وأيها الكفر ! وأيها العمى ! وأيها الصمم !

هو « الله » الذى نذكر زبدة الصباح . ومربى الصباح . وشاى الصباح وننساه . . .

هو « الله » الذى نصلى للدرجات ! ونركع للترقيات ! ونســجد للعلاوات ! ونسبح بحمد الوزراء والرؤساء وننساه . . .

هو « الله » الذى نحج لكعبة الحكم . ونقبل حجر لاظوغلى . ونطوف حول بيت الوجاهة وبيت المال وننساه . . .

هو « الله » الذى نضحى من أجل السلطة الارواح والاموال والاخلاق والوطن وننساه . . .

هو « الله » البعيـد عن الخاطر فى كل ضحكة ، وكل رحلة ، وكل وليمة ، وكل سـهرة . والقريب من الخاطر ـ فقط ـ عنـد الآهات والحسرات !

☆☆☆

هذا « ذكر الله » رفه عن الفتى لوعته ، وزحزح كربته ، وخفف مصيبته ونكبته !

فاين « كلام الله » ؟

كلام الله ؟

كد الفتى قريحته . وأجهد ذاكرته . واضنى مخيلته . فلم يظفر بكلمة من كلام الله !

واحسرتاه :

الف رحمة على عهد « الكتاب » فى القرية . والف رحمة على عهد « سيدنا الشيخ جاد » و « ستنا الشيخة صالحة »

بخ بخ ومرحى مرحى !

الحكومة المصرية الاسلامية القرآنية ماذا علمته فى المدارس ؟

ان الجواب عند المستر « دنلوب » وعند خلفاء المستر « دنلوب » حصة واحدة اضافية فى المدرسة الابتدائية يلقنونه فيها بعض آيات القرآن كالببغاء . فهو يحفظ الآيات عن ظهر قلب ولا يعلم منها شيئاً . حصة « الديانة » هذه تجىء فى آخر النهار وقد لعب الجوع بعقل الصغير وبطنه . وقد لعب الحر والعناء بأجفانه وذهنه ؟

فاذا ما تخطى دراسة الطفولة وانتقل الى الدراسة الثانوية حيث

يشرع العقل فى النضج . وحيث تشرع المدارك فى الاستواء ، كانت الكرة والجمباز أجدى على البدن من الدين على النفس ؟!

واذن فهناك كرة وجمباز . ولا دين . . .

فاذا ما انتقل للدراسة العالية فالدين علم متأخر لا يتمشى والمنطق والقانون والاقتصاد . هو لا يرتفع الى مستوى العلوم العصرية والدراسات الفقهية ! . . .

فاذا ما تخرج الفتى لم يذكر من قرآنه . ودينه . وسنته . وروحانيته غير خيالات « كتاب » القرية . وغير ايضاحات « سيدنا » الشيخ و « ستنا » الشيخة

فاعذروه ان انطلق عدواً الى « البنسيون » الذى لم اشأ أن اسميه ؟ . . .

واعذروه اذا نسى « الله » ونسى « كلام الله » . . .

واعذروه اذا حرضته نافذة القطار ، على السفر الى النار ، وبئس القرار . . .

☆☆☆

واشتدت لهفة الفتى على « كلام الله » . . .

وكان بين اخوانه من فريق الكرة المسافرين معه شاب طيب متدين اطلق عليه اخوانه اسم « الشيخ احمد » . . .

اقترب منه الاستاذ الناشىء وأسر فى أذنه أن ينتحى معه ناحية هادئة لأنه فى حاجة اليه . . .

ولبى « الشيخ احمد » الدعوة المستكينة الذليلة

قال : أتحفظ كلام الله كله ؟

قال : كله . والحمد لله

قال : أنجدنى فقد أوشكت الآن أن أنتحر ! . . .

هنا خلع « الشيخ احمد » حذاءه « وتربع » وأخذ يرتل الآية :
« وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون .
أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »

قال وقد أخذته روعة : أعد وتمهل

فأعاد « الشيخ احمد » الآية الكريمة ، وأخذ صاحبنا يلتهم روحانيتها التهاماً وهو مطرق إجلالا واحتراماً

وقرأ « الشيخ احمد » : « ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »

قال : زدنى يا « شيخ احمد » فانى أشعر بالطمأنينة تتسلل الى قلبى

قال : اسمع : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب »

قال الفتى : يميناً لأذكرن الله ، ولأحفظن كلام الله

قال الشيخ احمد : أذن سأعيرك مصحفى الليلة لتقرأ فيه كلام الله ولتدرك معنى كلام الله

ودفع اليه المصحف الكريم فأخذ يتلو السور سورة سورة حتى قال المنادى : أسيوط . . . .

. . . .

. . . .

أسيوط المنكوبة !...

لم تكن الرحلة الرياضية هى السبب المباشر لرحلة « شكرى » إلى أسيوط . انه أحب أن يغادر القاهرة ليغادر الذكريات المؤلمة . ومن الصدف العجيبة أنه قبل حدوث الحادث كان قد تلقى عدة خطابات من اخوانه المحامين تحت التمرين بأسيوط ومن إخوانه أعضاء النيابة بأسيوط ــ وكلهم من خريجى فرقته وزملائه وأصدقائه الذين يحبونه حباً جماً ــ يحرضونه كل التحريض على أن يشتغل محامياً بأسيوط . كمساعد لأحد نوابغ المحاماة هناك . ومنشأ الفكرة ان الصدف العجيبة ايضاً جمعت بين اخوان الفرقة فى صعيد واحد . ولما كان « شكرى » يتمتع فى المدرسة باعجابهم وتقديرهم فكروا فى التأثير عليه حتى يجتمع الشمل وحتى تتكون جمعيتهم الظريفة من جديد . . .

وأغرب ما كان فى ذلك الاغراء وذلك الاعزاز أنهم حملوا ذلك المحامى النابغة على أن يكتب خطاباً يعرض فيــه مرتباً شهرياً قدره عشرون جنيها ، وهو مرتب يمتاز عن مرتبات زملائه المحامين تحت التمرين وزملائه أعضاء النيابة . . .

لما حدثت الصدمة العواطفية وجد « شكرى » الفرصة مهيأة معدة . ووجد فى ذلك المهجر ما قد ينسيه آلامه وأحزانه ، وما قد يشغله عن ذكرى الماضى الــكئيب ...

واستقبله اخوانه على القطار الذى يصل بعد منتصف الليل بكثير . وكانت مجاملة لها وقعها . وأضافوه الليلة فى منزل أحدهم ، ثم اتصــل

باعضاء ناديه حتى انتهت المباراة وملحقاتها من ضيافة وسهرات وحفلات وعاد فريقه الرياضى الى القاهرة ، واستلم هو عمله فى مكتب زميله المحامى الكبير . . .

☆☆☆

ولم تمض أيام قليلة على حياته العادية فى أسيوط حتى انطلقت القنبلة الاولى من قنابل الثورة المصرية فى اقليم المنوفية ، ثم تتطاير الشرر الى غيرها من الاقاليم ، واشتعلت نار الثورة فى القطر بأسره ، فكانت ثورة مباركة لعلها المثل الاوحد على رجولة الامة المصرية فى عهدها الحديث ؟

وقطعت المواصلات بأنواعها بين أسيوط والقاهرة وبين أسيوط وغيرها من مدن القطر ، فكانت عزلة تامة ثم كانت المآسى . . .

☆☆☆

لا تطمع فى أن تقرأ هنا تاريخاً لحوادث الثورة فى أسيوط . ليس ذلك من شأنى ولا من شأن بطلى . وانما أنا امزج فى استعراضى هذا بين الحب والسياسة والاخلاق والاجتماع . وفى أسيوط اجتمع لفتانا كل هذا . فقد وصلت الى أسيوط أخبار الثورة مضخمة مجسمة . فهذا رجل محترم يقسم بأغلظ الايمان أن عرب « الباسل » احتلوا القلعة ؟ وهذا آخر لا يقل احتراماً يحلف بوحيده « حسونه » أن الرديف المصرى تجمع واكتسح قشلاقات العباسية وقصر النيل ؟ وهذه منشورات اليد السوداء المصرية المستعينة بالفوضويين الطليان والاسبان قد بشرت بفناء الاحتلال وفرضت إرادتها فرضاً على حكام الاقاليم المصريين ؟

نفثت هذه الاخبار النارية روح الحماسة فى صدور الناس فتحفزت

أسيوط وكشرت عن أنيابها. وكان الحب الميت قد أوقد فى صدر المحامي الناشىء شعلة من الشعر الثائر. فألف نشيداً وطنياً ملاءه بالدم وبالتضحية وبالفداء، ثم لحنه تلحيناً شعبياً سهلا وأذاعه، وطبع منه الطابعون اكثر من عشرين الفاً من النسخ وزعوها على الجماهير وعلى المخادع وفى العزب والكفور. وكانت نغمة الائتلاف بين الاقباط والمسلمين انشودة تلك الايام فترنم بها فى نشيده والقاه فى الكنيسة فى صباح يوم من الايام. فاذا بالناس تموج موج يوم القيامة واذا بالشر المقدس الوطنى المتشفى السفاك يدفع الجوع دفعاً نحو الانكليز...

ورحف البؤساء العزل زحف الاسود الكاسرة المقلمة الاظفار والانياب على مستودعات الذخيرة المحلية وعلى سلاح البوليس فيتخاطفونه تخاطفاً ويتقلدونه فارغا ومملوءاً. ويتكون فى لمح البصر جيش الثورة من «الجلاليب» و «الزعابيط». وعدتهم عبوديتهم الكريهة التى طال عليها المدى، وهناؤهم المالى والعائلى الذى سطت عليه أهوال السلطة، فغيبت فلذات الاكباد فى فلسطين والتهمت الذرة والقمح والحمير والجمال ورزق العيال وقوت العيال...

ويصيح الصائح ويهتف الهاتف: إن «فيصلا» شيخ العرب الغضنفر والصنديد الذى لا يقهر قد تقلد القيادة العامة، ثم يسمع الناس بعد قليل صوت الرصاص فى «المليان»

ويخيم الظلام فتشتد المعركة وتحتد. ثم فجأة تنطفىء الانوار فى أسيوط الكبيرة ويسودها الظلام...

ان وابور النور قد تعطل...

ويختبىء الناس فى دورهم ويحكمون إغلاق الابواب ، وقد انتشر الذعر فتسلل الى كل بيت والى كل قلب

فجأة ينطفىء النور ثم فجأة تندلع النار . . .

هـذا « تبن السلطة » المكبوس المكدس على مقربة من جدران العمارات والقصور فى أسيوط قد أصبح محيطاً لا من الماء ولكن من اللهيب . . .

والنار ترتفع وترتفع ثم تلقى باذنابها الطائرة على المبانى القريبة فتحترق ...

وينتهز الاشرار الفرصة فيقتحمون الحوانيت سالبين ناهبين متاجر الاجانب والوطنيين سواء بسواء

وتتوحد الاسر الاجنبية وتتحصن وراء الابواب بالدموع وبالدعوات وبالأنين . . .

ورجال الحكومة قد أسقط فى أيديهم من الكبير الى الصغير فتلاشوا جميعاً وقنع كل واحد منهم بمخبأ وبملجأ . . .

وتختفى أسيوط ، فلا ترى فيها ولا تسمع الا الظلام والا الرصاص والا النار والا العويل . . .

☆☆☆

فى تلك الليلة السوداء المجنونة وجد « شكرى » واخوانه الاغراب من أعضاء النيابة والمحامين الناشئين أن البيوت الكبيرة قد أوصدت أبوابها وأوقفت حولها الحراس من فلاحيها وزارعيها خوفا من الثورة — الثورة ضد الانكليز ، والثورة ضد الثروة ! ! !

نعم كانت حقاً ثورة ضد الانكليز يقودها بعض المتنورين . وثورة ضد الثروة يقودها الاشرار الفقراء . أما ثورة الانكليز فكانت تدور رحى معاركها حول مدرسة الامريكان وحول الخزان . وأما ثورة الثروة فكانت تدور معاركها فى الحوانيت والمتاجر . وكان « شكرى » وإخوانه الاغراب يتحصنون فى شقة أحد الزملاء . ولكن « شكرى » بعد نكبته العاطفية كان لايزال ذاهلا شارد الذهن لا يقوم روحه بشىء . سمع فى الشقة المجاورة أنيناً ، وأحس بكاء وعويلا ، فاتجه نحو الباب وأخطر من بداخله بأنه رسول أمان ففتحوا له . وجد أمامه ـ ويا لهول ما وجد ! ـ نساء وأطفالا رضعاً وغير رضع ورجالا كالنساء وكالاطفال . « أجانب » يكاد يميتهم الهلع قبل أن يصيبهم الرصاص . أبت سخافته فى هذه اللحظة الرهيبة إلا أن يلقى عليهم محاضرة فى روح الحركة وتراهة الحركة . ولـكن من يسمع ومن يصدق . وألقت سيدة وقورة بجسمها على قدميه تقطعهما تقبيلا وتوسلا وهى تشير اشارة متخاذلة نحو باب العمارة ، وكانت عمارة محمود باشا سليمان رجل الصعيد العتيد ، وولده « محمد باشا محمود » أحد المنفيين فى « مالطة » ومن أجلهم قامت الثورة . واندفع « شكرى » نحو الباب يتبين ما يجرى فاذا به يلمح صفائح البنزين المنهوب من مخزن مجاور ، قد رصت رصاً على محاذاة جدار العمارة ، وإذا به يشهد ـ ويا لهول ما يشهد ! ـ الثائرين يوشكون أن يشعلوها بعيدان الكبريت ! ! !

زأر فى وجوههم زئير اليائس المستميت . فقال أحدهم : « هنا انكليز » . . . قال : أخطأتم بل هنا أجانب . وهنا أمهات . وهنا أطفال .

ولن يقدم أحدكم على جريمة قبل أن أكون أنا أول ضحية . هـذه عمارة « محمد محمود » ولاجل حريته وحرية بلاده ترتم . وانتم الليلة تخربون بيته وتنسفون ملـكه . الى الوراء . الى الوراء . .

قال وحش من الوحوش : «اسكت . وهل وزع محمود باشا سليمان أرغفة العيش على الجائعين ؟ نحن طلاب قوت ! ! ! »

وكانت صدمة أية صـدمة للفتى الوطنى . خلط عجيب بين طلاب الاستقلال وطلاب القوت ! وخلط غريب بين الـكفـاح القومى والاشترا كية الساذجة ! . .

وحاول اللص الاكبر أن يشعل النار فقبض الفتى على يده متوسلا ، ولـكن الفقر الجاهل الـكافر كان لايعى ولا يفهم . حتى هتف هاتف : اسرعوا الى دكان السجاير . فتركت العصابة صفائح البنزين وهرعت الى الغنيمة اللذيذة . فحمل بيده هو وزملاؤه الصفائح . ولم يرتد أحد من غواة التدخين . . .

☆☆☆

صوت الرصاص لا يزال يدوى دويه الرهيب . . .

عمارة « النميس » الحديثة الطراز تشتعل بالنار . . .

بركان التبن المـكبوس لايزال يرسل الشرر واللهب . . .

كل هذا كان هيناً بجانب النكبة التى حلت بمتاجر الصاغة داخل البلد . أسيوط عاصمة الذهب والمصاغ أصبحت محكومة بعصابات اللصوص . وحوانيت الصاغة وفيها رءوس الاموال الطائلة قد اصبحت أثراً بعد عين

كان التجار الاقباط هم الفريسة . ولعلى أذكر تعليلا واحداً يهون

الامر . فقـد كانت الليلة السوداء ليلة الاثنين وكانت ليلة لم يرقب مقدماتها الاقباط لانهم يقفلون متاجرهم يوم الاحد ، فلم يحتاطوا لحلت بهم النكبة . وكان هم الشبان المسلمين أن يصونوا الوحدة القومية وكانت مهمة شاقة . وكان عسيراً على المسلم أن يقنع قبطياً نكب فى ثروته عن آخرها بنزاهة اللصوص وبعدهم عن فكرة « التعصب » . ولعل « شكرى » كان اتعس الناس بهذه الظاهرة . وكانت مواساة الاقبـاط المنكوبين سخافة . وتغلغل «شكرى» بين العصابات فى الليل البهيم يعظ وينصح . ولـكن هيهات ! . .

ثروت الثانية!

... وفى زقاق من الازقة سمع صوت استغاثة مكتوم فاتجه نحوه فى الظلام . وحدق فى وجه المستغيث فلما تبينه سقط على الارض قابضاً على القدمين بيديه الفولاذيتين . وانقلب المستغيث مغيثاً فحنى على الاستاذ يهدىء روعه ويثيب اليه رشده . وأفاق « شكرى » فأخذ يقبل شعر المستغيث ووجهه تحت تأثير طارىء غريب من الجنون النصفى . ثم انهمرت دموعه وأخذ يصيح : ثروت . أنت هنا ؟ . اذن لم تموتى ! ؟

كانت الفتاة المستغيثة فتاة هى بعينها « ثروت » فى القوام ، وفى القد وفى اللون وفى الروح . . ولـكنها لم تكن ثروت . . .

والفتاة المستغيثة مأخوذة بهذه الحالة العجيبة . ولـكنها تحس نحوه احساس الاشفاق فتمسح دموعه وتقول له : تنبه . أنت مخطىء . أنا طالبة بمدرسة الامريكان واسمى « مريم » . . . هيا انقذنى وعد بى الى منزلى . . .

ويثوب صديقى « شكرى » الى رشده فيدرك خطر الموقف وسخافة تصوره . ويعتذر للفتاة اعتذاراً كله خجل . ويحيطها بذراعه وصدره ويقتحم بها الجماهير الثائرة الناهبة . وهو كالاسد متحفز لـكل مفاجأة . حتى اذا استقام الطريق قليلا وخلا من المارة سألته الفتاة برقة : ألست صاحب النشيد ؟

فيجيب : انا هو يا آنسة . . .

فتقول : لك تهنئتى واعجابى . أنا أحفظه عن ظهر قلب وكل زميلاتى . . . ثم تبكى ؟

فيقول لها : ما يبكيك ؟

فتقول : جاء أبي لزيارتنا قبل الحادثة ولم يعد للآن فبادرت أبحث عنه وسط هذا الرعب فلم أظفر به . وكدت افترس حتى استغثت بك . . .

قال : أحمد الله . ومن أين أبوك ؟

قالت : نحن من بلدة (. . .) وهي قريبة من هنا وسنعود بأية طريقة فى أول فرصة . . .

قال : بسلامة الله . . .

ومرت برهة . واذا بالفتاة تفاجئه بهذا السؤال :

— ومن هي ثروت ؟ .

قال : هي التى أتت بى الى هنا

قالت : أهي من سكان أسيوط ؟

قال : بل من سكان القبور

وكانت فتاة لماحة ففهمت ولم تنبس ببنت شفة . . .

فلما وصلت لمنزلها عطفت قائلة برقة وأسى : أتراها تشبهنى ثروت المرحومة ؟

قال وهو يضغط على يدها شاكراً عطفها : كل الشبه

قالت : اذن ادعوك لزيارتى كلما شئت أن تراها

قال : اشكرك

وكان ابوها على باب المنزل ينتظرها بفارغ صبر فتلقاها بحنو الآباء ، ثم سألها : من هذا ؟

فقالت : منقذى

واستأذن « شكرى » وعاد ادراجه وهو بين ثروت الميتة . وثروت الحية . . . .

الثورة الجامحة لاتبقى ولا تذر . كل شيء فى البلد ينهب : اثواب الحرير النفيسة . زجاجات الروائح العطرية الغالية الثمن . أسرة النحاس الفاخرة . الاحذية اللامعة وغير اللامعة . الاثاث الذى لايقدر بثمن . مخازن « استين » تنقل كلها حتى «باركيه» الارضية يقتلع . وكانت المناظر بين مضحك ومبك . فهذا ثائر يحمل على ظهره « البنك » الذى يعرض عليه العمال الاقمشة ويقف حوله الزبائن وهو ينوء تحت حمله الثقيل هاتفا : يحيي الوطن ! ! وهذا ثائر آخر ظفر بجاكتة « سبورت » من جاكتات «التنس» الظريفة فهو يرتديها على جلابيته أو زعبوطه . وهذا ثائر لبس حذاء من نوعين ولونين . «الفردة» اليمنى سوداء لامعة للسهرة ، و «الفردة» اليسرى بيضاء « للتنس » ـــ وتضرب الفوضى باختصار اطنابها على اسيوط فلا تحكمها الا الفوضى ! ! !

فاذا ما سألت عن « الحكومة » : اين هى . واين مقرها ؟ وجدتها متحصنة فى بيوت الاعيان او القناصل محروسة بالاهالى من غير جنس اللصوص ؟ !

وتنتشر اشاعة : ان الطيارات الانكليزية على وشك الوصول لتلقى القنابل على المدينة الهائجة المائجة . فترى فى الحال رتلا من العربات الفاخرة تحمل الاعيان وتحمل « الحكومة » بموظفيها الكبار وتنهب الارض نهبا . الى اين ؟ أتدرى ؟

الى الاسبتالية الاميرية لتلوذ الحكومة ويلوذ الاعيان بالبناء المقدس وليختفوا فيه تحت حماية المرضى وذوى العلل والاسقام ! . .

وتسمع فى السماء ازيز الطيارات فيملأ الذعر قلوب الثائرين وغير الثائرين ويلوح الشبح المخيف فى الجو فيدور دورة أو دورتين ثم يهدى تحيته البليغة الى المدينة : قنابل . . .

ويشاء ربك الحكم الجبار أن تسقط القنابل على الاسبتالية مخبأ الحكومة وملجأ الاعيان والموسرين والارستوقراطيين بعد أن أجلوا عنها المرضى وانصاف الموتى . . .

ويتحكم الهلع فى الرءوس وفى الابدان وفى الاذهان وفى الألسنة فلا يلد الا مظهراً واحداً : الذهول . . .

واستراحت القنابل واستراحت الطيارات بعد أن خطفت عدة ارواح صغيرة لاطفال صغار وبعد أن أسكتت صوت رصاص الاهالى الثائرين . . .

وينزوى الاستاذ « شكرى » فى غرفته بالفندق وهو يمزق شعره ويلطم خده من الغيظ ومن العجز . يسائل المسكين نفسه بذلة وجبن وانكسار : أيصعد الى السماء فينازل الطيارات ؟ ام ينزل الى الارض فيكافح العساكر « الهنود » ؟

هو يهتف : الى النزال الى النزال . ولكنه يلوح بيديه أسوة بالمرحوم المبرور « دون كيشوت » البطل المغرور

✡✡✡

ويدق باب الغرفة فجأة فيأذن بالدخول

الخادم يحمل ورقة صغيرة فيها هذا الاسم :

« ثروت » . . .

☆☆☆

وتدخل الآنسة « مريم » وعلى ثغرها ابتسامة شجاعة فتلقى أتحية ساذجة بعيدة عن التكلف والتصنع وعلى الطريقة الانكليزية المهذبة المحببة الى القلب والنفس . . .

برهة : ما أدقها وأرقها وأصعبها فى التحليل ! . . .

دهشة ، وعاطفة ، وتقدير ، وحيرة . . .

ويغلق الباب . ولايدرى واضع هذا الاستعراض من أغلقه :

أهو الخادم ؟ أم الاسـتاذ . ام الآنسة . أم هو الجماد أغلق نفسه بنفسه براً بهذا الطهر وهذا العفاف ؟ . . .

قالت : هل يحرجك وجودى ؟

قال : مطلقاً يا آنسة ، بل بالعكس . وجودى الذى يحرجك . . .

قالت : لا يعنينى ، أنا أسيوطية وأنت فى أسيوط غريب . . .

قال : شكراً

قالت : نعم غريب . . . وحزين ايضا . . . ومهدد بخطر !

قال : شكراً

قالت : وعدت « ثروت الحية » بالزيارة فلم تفعل ، فها هي تسعى اليك

قال : شكراً

قالت : خشيت عليك من الطيارات فجئت لأطمئن . . .

ولمحت الفتاة اللماحة فى عينيه دمعتين فاخرجت منديلها الصغير

الانيق وهفت به وبأناملها عليهما ، فاستولى على يدها الصغيرة يقبلها بضعف واستسلام . . .

☆☆☆

هل تلذ لك أيتها القارئة الصغيرة وأيها القارىء الصغير رواية هذه المقابلة العجيبة ؟

كان من رأيي ان اضن عليكما بالتفاصيل لولا أنها تكاد تكون خالية من التفاصيل . . .

هو مشهد من مشاهد السينما . ولا عجب فالفتــاة لا بد قرأت كثيراً من الروايات وشاهدت كثيراً من « الافلام » السينمائية . ووجدت فى صاحبنا بطلا من الابطال الذين شاهدتهم أو قرأت عنهم فاقدمت وفى نفسها أن تفاجئه لتواسيه . .

و « ثروت » عندها قصة . ومثار للفضول وحب الاستطلاع . وهو غريزة الفتيات والجنس الناعم على العموم . .

اذن لنهمل الخطر جانباً . ولنحتقر الطيارات مؤقتاً . ولنتجاهل أسيوط المنكوبة لحظة . وليتكلم « شكرى » طويلا عن « ثروت » بالسذاجة الفتيات ! !

لئن قبلنا عذر الآنسة « مريم » فكيف نقبل عذر الفتى الناضج « شكرى » وقد أخذ يروى قصة « ثروت » بأسلوب تركب من الحماسة ، والدموع ، والتنهدات ، والحسرات . . . ؟

يقول بعض خبراء العواطف : ان « الخطر » يلد العاطفــة بسرعة البرق ! أليس هو الذى يعطف القلب على القلب ؟ ؟ أليس هو الذكرى

الرائعة الرهيبة التي لا تفارق الاذهان فى مختلف الاسنان . . ؟

وما هو الحب ؟

هو عندى بلا تطويل ولا اطناب : مجرد « الذكريات » . .

هل فهت ما اقصده من هذه العبارة الموجزة ؟ ان كنت لا تزال محدود الذكاء فاعلم أن عاطفة نشأت سريعة بين « شكرى » و « مريم » ولكنها « شيء » مبتكر فى عالم العاطفة ؟ !

أما « شكرى » فدفاعه ان هذا « الشيء » نحو « مريم » هو الوفاء كل الوفاء « لثروت »

أليست تشبهها قداً ، ولوناً ، وروحاً ؟ !

اذن هو لا يخون الميتة بهذه الحية . . .

وعجيب هذا الوفاء للاموات !

انه يشعر رغم هذا التحليل بشيء من وخز الضمير

ولـكن ما أرحمك يارب !

يموت العزيز علينا فنشيع جثته بكل مظاهر الحزن والجنون والوجيعة . فاذا ما ضمنا المأتم فى ليلته الاولى لم نتعفف عن السمر وعن تبادل النكات وعن الضحك ؟ !

وتغيب فى أسرع من رد الطرف ذكرى العزيز . . .

ويغيب الوفاء . . .

ليس هذا فى نظرى جحوداً ونذالة . وإلا كان جحوداً من أخس أنواع الجحود ، ونذالة من أحقر انواع النذالات

انما هو « الله » سبحانه وتعالى يبعث الصبر الى نفس المحزون بقوة

تفوق قوة الحزن رداً لفعل الصدمة فتتخدر الاعصاب المتوترة ، فتعود في الحال سيرتها الاولى . . .

فينسى الاحياء الاموات في اقرب الاوقات ! . . .

٭٭٭

أما « مريم » الصغيرة الناشئة فقد أحدث الخطر في نفسها هزته الاولى

ثم أحدثت المفاجأة الثانية الهزة الثانية . . .

ثم استفز عواطفها الفضول . . .

ثم لذ لها أنها تشبه فتاة من أجلها سالت دموع شاب معروف ، ومن أجلها حدث تشنج واغماء ، ومن أجلها تجلت عواطف قوية فيها لوعة وفيها أنين . . .

ولا يغرى المرأة الصغيرة او الكبيرة غير الاعجاب المضمر أو الصريح . . .

ثم أتدرى ما الذى أشعل هذه العاطفة الصغيرة العجيبة ؟

انها الغيرة !

ولو من ميتة ؟!

والغيرة من الاموات عنصر فذ معقد من عناصر غريزة المرأة ؟!

انها غيرة لا تصل الى مستوى التشفى أو الحقد او المقت . وانما هي غيرة والسلام . . .

ولا تستكثر هذا التحليل على فتاة في سن الثامنة عشرة . انك ان اتجهت الى هذا النقد عددتك محدود التجربة في عالم الفتيات !

وليس هذا مجال الدفاع عن نظريتى بتطويل . وانما أقول باختصار : تلك هي تجاربى وكفى !

☆☆☆

هذه هي نفسية الفتى ونفسية الفتاة حين كان « شكرى » يروى و « مريم » تسمع . وحين كانت الثورة فى أسيوط تسكن أمام صوت مقذوفات القنابل . ولكن احتشام الشاب الاصيل والشابة الاصيلة كان يحول دون كل تلميح او تصريح . كانت العواطف تتفاهم بحذر وتحفظ وجبن . وكانت الالسنة خرساء والعيون تغالط ولكن الروحين تتقاربان

وانتهت المقابلة على « رسميات » فيها حنو . وعلى مواعيد ومقابلات فيها خفر وحياء . . .

☆☆☆

لم تكد الفتاة تلتفت نحو الباب حتى سمعت أسيوط دوياً ثالثاً هو مدفع « المتراليوز » قد ركب وسط الخزان واطلق ناره يميناً ويساراً فأباد مخلوقات ومخلوقات . ورأى « شكرى » من واجبه أن يصحب الفتاة الى منزلها فى عربة فركبت مكرهة وركب مكرهاً . حتى اذا وصلت الى باب منزلها ودعها بارتباك . . .

وعاد فى الحال الى غرفته ثم أغلق بابها وهو فى أشد حالات التهيج والسخط ثم نظر فى المرآة وخاطب نفسه قائلا : انت نذل ! . . .

☆☆☆

ثم ارتمى على سريره يبكى الوفاء — ويبكى عدم الوفاء
ثم زفر زفرة وهمس هاتفاً : غفرانك يا ثروت . . .

القرون الوسطى !!!

وما شأن القرون الوسطى بسنة ١٩١٩ ؟..

بل وما شأنها بأسيوط ؟..

سل الجنود البريطانية الاوسترالية الهندية الزاحفة نحو اسيوط...

سل « النيابة العمومية » الانكليزية القائمة فى أسيوط...

سل « المحاكم العرفية » المنعقدة فى اسيوط...

سل الضحايا واذرف الدمع على البلد الذليل المسكين...

☆☆☆

انطفأت نار الثورة فى عاصمة الصعيد...

وابتدأت نار السلطة فى الاشتعال..

☆☆☆

اقرأوا الاوامر الآتية :

« يجب على كل مصرى كائناً من كان أن يؤدى التعظيم العسكرى لكل بذلة رسمية من بذلات جيش جلالة الملك البريطانى فى الطريق » !!!

« يجب على كل صاحب بيت تطلب السلطة العسكرية تفتيشه ان يفتح الابواب فى الحال » !!!

« يجب على من اتصل بعلمه اى تفصيل من تفصيلات الاضطرابات أن يقدم البيانات فى الحال » !!!

سمعنا وأطعنا ... ...

ه نحن نؤدى التعظيم العسكرى اللازم لكل « بذلة رسمية » ولو كانت لسواق سيارة ، او لسائس حصان . . .

هانحن نفتح الابواب لعسا كر السلطة السكارى المترنحين . .

ثم ــ واحسرتاه ــ ها هي البلاغات تنهال كالمطر على المعسكر ! . .

☆☆☆

وتربع « مكنوتن » مفتش الداخلية على العرش وملك وحكم . .

وسطا « كرباجه » على ظهور المهندسين والمعلمين فى القهوات والمنتديات العامة . وذل له الكبار والصغار والحكام المصريون والمحكومون المصريون . .

وتسلى العسا كر الانكليز بالرصاص يداعبون به أرواح المارة من باب المزاح وتضييع الوقت مادامت أرواح هذه الخراف بغير ثمن ؟ !

☆☆☆

فى وسط ذلك الرعب طأطأت الرءوس جميعاً ما عدا رءوس . .

رءوس صغيرة لينة طرية تراصت تحت أعلام غير منكسة . بل تحت أعلام مرفرفة فى الهواء متوثبة نحو السماء ! . .

يهدرون هدير البحر ويزأرون زئير الاسود . منشدين :

« وطنى ! وطنى ! . . »

وزحف الجيش الصغير الوثاب نحو دار أحد أساطين الزعماء ــ بسيونى بك ــ وحاصر القضاة والمحامين فى اجتماع عقد باسم « النصيحة والتهدئة . . »

واذا بالجيش الصغير ينتفض جيشاً عرمرماً بارز القلوب ،

والانياب ، والاظافر ، واذا به يصطف صفوفا منتظمة ، وينتظم فرقا ، وضباطاً ، وجنوداً ، وحملة اعلام ! ..

وخطب القائد الصغير الاول فقال :

« جاءت أخبار الاعداء بأن جيشهم زاحف ! وان رصاصهم « دم دم » ؟ فأعددنا العدة للمعركة . وسلاحنا سلاحان معنويان : قلوب ، وايمان ! ! »

ثم نهض القائد الصغير الثانى فقال :

« قيل لنا ان « دم دم » هذا رصاص مسموم ينقل من الاولى الى الاخرى فى ثانية . فاعددنا له عشرة اعلام وعشر ضحايا . فاذا سقط حامل العـلم الاول تقدم وريثه حامل العلم الثانى . وهكذا حتى تبيد فرقتنا وتسقط أعلام مصر على جثث فتيان مصر ! ! »

هنا قام احد البـارزين فما كاد يفتح فمه بالقول اللين حتى أخذته الصيحات من اليمين واليسار ومن الامام والخلف وحتى امتلأت جوانب المنزل بالنشيد النارى . .

نشيد الاستاذ « شكرى »

ووراء صفوف الفتيان انتظمت صفوف الفتيات وعلى رأسهن القائدة « مريم » ؟

٭٭٭

أولئك كانوا طلبة مدرسة الامريكان . لم يشهد الاستاذ « شكرى » فى حياته أبلغ ألسنة ، ولا أعمر قلوباً ، ولا اعنف عزائم ، من ألسنتهم وقلوبهم وعزائمهم . .

وعبثاً حاول الزعماء المجتمعون ان يخففوا من حدتهم وبادر الوشاة فبلغوا معسكر السلطة ان « الضحايا » الفتية قد باعت ـ سلفاً ـ للوطن الارواح والابدان . فخشيت السلطة تجدد الفتنة وألقت السـلاح ، وفرغت فى « الفاضى » الرصاص المسموم ..

وأنقذ الطلبة الاعزاء أسيوط الـكبيرة من نكبة دامية . ولله در طلبة الامريكان . كانوا عنصر الثورة الذى ضرب المثل الأعلى فى معنى الثورة ومعنى الفداء ! !

٭٭٭

أمطرت سماء الخسة والنذالة وابلا من البلاغات على ضباط السلطة القضائيين . وبدأت التحقيقات تسير بسرعة البرق . وصدرت أوامر القبض كرصاص « المتراليوز » تصيب من فى طريقها بريئاً كان ام غير برىء كبيراً كان ام غير كبير . . .

تلك كانت تحقيقات تليها محاكمات وفيها « سين » و « جيم » وأخذ ورد . أما كانت بجانبها طلقات نارية يطلقها العساكر الانكليز على من يتوسمون فى شكله ، وعدم انتظام تقاطيعه ، وقلة انسجام ملابسه ، انه مجرم . . مثل هؤلاء كانوا لا يستحقون قبضاً ولا تحقيقاً ولا محاكمة . . علام ضياع الوقت وضياع الحبر ، وضياع الورق ؟ ! . .

الرصاصة السريعة هى المحققة وهى الحاكمة وهى المنفذة . والقبور موجودة فى الطريق ، وفى الزوايا ، وفى الازقة . . ورحم الله من لم ترحمه السلطة العسكرية ؟ ! . .

من بين « الضحايا » المرحوم « كامل » مأمور البندر . أتدرى ما كانت تهمته ؟ ؟

حينما فاجأه الثوار محاولين اقتحام الابواب لاغتصاب السلاح اتصل بكبير الحكومة طالباً الامر فقال له : تصرف ! . . .

واتصل بالمستر « مكنوتن » الانكليزى ممثل السلطة العسكرية فقال له : تصرف ! . . .

واتصل بقائد القوة العسكرية القليلة الموجودة إذ ذاك فقال له : تصرف ! . . .

وتصرفت الضحية المسكينة بالشدة تارة ، وبالنصيحة تارة أخرى ، وبالخداع حيناً ، وبالاغراء أحياناً . وكان وحده هو الكل فى الكل والباقون متحصنون إما فى المخابىء أو فى المغاور أو فى المستشفى ، وخفف تصرفه الحكيم من حدة الحوادث . . . ثم ذهبت الايام فاذا به يحاكم على انه « تصرف » واذا به يتلقى حكم « الاعدام » واذا بجثته يحملها فى الفجر اعوان السلطة فيلقونها تحت أقدام عياله واولاده ليبحثوا لها عن حفرة ؟ . . .

إلى رحمة الله أيها البرىء . لم يكن الاعدام لجريمة وانما كان القصد منه « الارهاب » وصادفته القرعة ! . . .

وقبضت السلطة على عدد وافر من الزعماء والاساطين الذين كانت مهمتهم فى أسيوط هي النصح والارشاد وكبح جماح الثورة والثائرين ؟

لم ؟! . . .

صعب عليك ان تفهم منطق السلطة العسكرية . . .

قاعدة قضائية عندهم لا تقبل مناقشة ولا لجاجاً : « أن من كان يملك النصح والارشاد . كان يملك منع الثورة فهو مجرم » !!!

وامتـلأت السجون . ولا أريد ان اطيل عليـك الحديث فهو لا ينتهي ...

اهرب ! . . .

« اهرب » ! . . .

كلمة صغيرة فى ورقة صغيرة وجدها « شكرى » فى غرفته . . .

والخط كان خط « مريم » . . .

« شكرى » كان يعلم تمام العلم أن السلطة العسكرية كانت اذ ذاك سلطة غاشمة . ويعلم إنه الف نشيداً ألقاه على آلاف المجتمعين فى الكنيسة يوم المعركة الاولى . وكان يعلم انه من السهل جدا ان يقال عن نشيده النارى إنه المحرض الاول للثورة . ويعلم انه من الميسور جداً أن يكون الجزاء لهذا المنطق المتسلسل المنسجم انما هو : الاعدام . . .

تراءى له هذا الموقف بكل ما فيه من خطر وبشاعة وروعة . فهل تدرى ماذا كان احساس فيلسوفنا الصغير الطائش نحو هذا الانذار ؟

إنه أخذ يقبل الورقة مثنى وثلاث ورباع . . .

أليست من « مريم » ؟ . . .

أليست من شبيهة « ثروت » ؟ . . .

أليست من الصغيرة الناشئة العاطفة ؟ . . .

أليست تتضمن نوعاً من العطف ومن الوفاء ؟ ثم من الخوف عليه . . .

لا لا . . .

يجب ان يذهب توا للبحث عن « مريم » ليعرف منها التفاصيل التى تهدد حياته . . .

كانت هذه هى الحجة الظاهرة المقبولة . . .
أما الحجة الحقيقية فكانت : فرصة للقاء . . .

✡ ✡ ✡

هي : ألم تهرب بعد ؟
هو : وهل أستطيع ؟ !
هي : كيف ؟ بأية طريقة ! وفى الحال ! . . .
هو : وبدون ان أراك ؟ !

. . . .

سكتت « مريم » عندما ابدى « شكرى » هذا الاعتراض . ولكن الفتاة كانت جادة غيرهازلة . وفاضت عواطفها وأخذت تقبل يده بشدة قائلة : اهرب ! اهرب ! انك فى خطر . . .

قال : أين والدك ؟

قالت : ذهب ليبحث لنا عن وسيلة للسفر . سنغادر البلدة الكريهة فى الحال

قال : اذن حق على الهرب !

وتشجع فأخذ يدها اليمنى بين يديه . ولكنها لم تعطه الفرصة برجولة وكبرياء . . .

قال : لعلى تجاوزت حد الأدب . . .

قالت : بل تجاوزت حد الجنون . اسمع يا « شكرى » ليس الوقت وقت عاطفة انهم قد شرعوا يحققون فى نشيدك . ولى قريب يشتغل مع رجال التحقيق أبلغنى هذا فذهبت اليك ولم أجدك وخوفا من

ضياع الوقت تركت ورقة . وكلمة . . . ثم اسمع ماذا فعلت بعد ذلك :
بحثت عن « المطبعجى » وعرفت اسمه ومكانه . وقام معى فوراً فاتلف
المسودة التى بخطك واتلف النسخ التى فى عهدته . ثم مررت على بيوت
زميلاتى بقدر الاستطاعة فمزقنا النسخ الموزعة عليهن . ثم ذهبت الى
المكتب فاخطرت « مصطفى افندى » الوكيل بالموضوع . ثم أوصيت
قريبى الذى يساعد المحققين بك وبشبابك خيراً . . .

قالت هذا كله بحماسة ورعشة ثم جلست على كرسى وألقت برأسها
بين يديه فاذا بهما مغمورتان بالدموع ! ! ! . . .

٭٭٭

ومرت لحظة . .

ثم انحنى الفتى العاطفى يلثم شعرها بفمه

ثم همس فى أذنها قائلا : اتركى نشيدى . وتكلمى عن قلبك وعن
قلبى . . .

قالت بعد تردد وصمت : دع الحديث عنهما للمستقبل . . .

قال : انك قبطية ؟

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : انى مسلم . . .

قالت : لم افهم شيئاً . . .

قال : هل يمكن ان نلتقى ؟

قالت : بعد ان يستتب السلام . ولم لا ؟

قال : لم تفهمينى . هل يمكن ان نلتقى تحت ظل عقد مقدس ! . . .

انتفضت الفتاة وقد تورد خداها فتجلى جمالها القبطى وامتزجت حمرة اللون بضعف الخفر فكانت سحراً وسحراً « حلالا » . . .

وتمتمت قائلة : شكرى . . .

قال : نعم يامريم . . .

قالت : النشيد !

قال : بل القلب !

قالت : اعد السؤال . . .

قال : هل يمكن ان نلتقى تحت ظل عقد مقدس ؟

قالت : عندى الجواب . ولكنى . . .

قال : ماذا . . . ؟

قالت : خجول . . .

قال : اذن لن اهرب ! ! !

قالت : اتوسل اليك . . .

قال : حتى تجيبى . . .

قالت : اتعدنى ان أنا أجبتك عن سؤالك ان تهرب فى الحال ؟ . . .

قال : فى الحال . . .

قالت : أعد السؤال . . .

قال : هل يمكن ان نلتقى تحت ظل عقد مقدس ؟

قالت : نعم ! . . .

قال : وكيف ؟ !

قالت : . . . الدين هو القلب . . .

قال : أتسمحين إذن بقبلة ؟ . . .

قالت : ها كها . . .

وقبلها الفتى قبلة الطهر . قبلة جبانة خجولا مترددة نزقة لم تستغرق ربع ثانية ! . . .

وانسحب مسلوب اللب وهو يقول :

— إلى اللقاء !

وهي تجيب :

— الى اللقاء ! . . .

☆☆☆

عندما يقرأ القراء كتابى قد تستفزهم بعض النتائج السريعة فى المواقف الغرامية والاجتماعية . هذا الوعد السريع بالزواج ، وهـذا الاتصال القلبي السريع بالفتاة القبطية ، قد يكونان فى نظر بعض القراء مأخذاً ومحلا للنقد ! . . .

ليكن . . .

لست أدون وقائع خيالية من رأسى . وأستمد تصويرها من خيالى . ولست انقل لـكم المثل الصحيح للتجارب الصحيحة . وإنما أنا أنقل لكم بأمانة حقائق وحوادث مادية وقعت بالفعل كما قدمت . . فى المسألة الاولى . . . ليفهم القراء جيداً أننى لست بالمؤلف بالمعنى الذى يفهمونه . فان كان ثمة ملاحظات فمسئوليتها على ابطالى . . .

واذا أنا راجعت صديقى «شكرى» وقلت له : كيف يتحول قلبك

فى مدى اربعة شهور أو خمسة شهور الى فتاة حية . وقد دفنته بجوار فتاة ميتة ؟ !

قال وهو يتأوه : آه لو دخلت قلبي وفحصته ! انه ما نسى الميتة . ولن يجحد الحية . ان « الزواج » ياصديقى هوعلاج المنكوب فى الحب . ان « الزواج » هو البعث وانه هو السلوى . . .

ثم أنصفنى وخبرنى . من أحببت ؟ أليست هى التى رحلت بقـدها وجمالها وروحها ؟ ثم ماذا أقول فى الخطر الذى جمعنى بها وعرفنى بشخصها ؟ ثم ماذا أقول فى عطفها وخوفها على . وفى لوعتها على حياتى ؟ ثم ماذا أقول اخيراً فى قلبي ؟ تالله لو اقنعنى بأنه جحد أو خان لسحقته . . . ولـكنى اسائله فى ظلام الليل وفى هذا الخطر فيقول : هي — وهى ؟ ! ! وانى لقلبي مطيـع ! ! !

تاجر الحمير ؟!

« عثمان افندى » ضابط بالمدرســة الثانوية . يساعد هو الآخر المحققين . ولـكنه كان لا يسلو الخمر . فهو دائماً ابداً مترنح . قابل « شكرى » فى المساء فمد « شكرى » يده لمصافحته . فقبض عليها وهو يهتز سكراً وذعراً وقال : الوداع ؟!

قال شكرى : من تودع ؟

قال : أودعك . لقد بدأوا يتحرون عنك وعن نشيدك . . .

فى هذه اللحظة وفد أحد القضاة ممن يحتلون اليوم منصباً من أسمى مناصب الدولة القضائية فنصح « شكرى » بالفرار فوراً الى ساحل سليم . وابلغه انه كلف من سعادة المدير بتبليغه هذا الانذار

قال شكرى : ان الفرار دليل الجرم . ثم بأى حق أنكب عائلة « محمود باشا سليمان » بجريمتى ؟ لا ، سأبحث عن طريقة اخرى . . .

وقام من فوره فبحث عن وكيل المكتب وصفى معه أوراقه وأشغاله . ثم علم ان زورقا بخارياً سيقوم فى الصباح الى « ديروط » يحمل فرقة من الجند تحت رياسة أحد الضباط الشبان ومعهم مرتبات المركز فقال فى نفسه : ان الشباب يحن الى الشباب . فلأحاولن أن أندس فى الزورق البخارى مع العساكر ، حتى إذا ما وصلت الى « ديروط » تابعت رحلتى على الركائب أو العربات من مركز الى مركز ، ومن اقليم الى اقليم ، حتى أصل الى بنى سويف . وقيل ان شركة « كوك » تنقل الركاب من بنى سويف الى القاهرة . حيث تنتهى رحلتى ، وتتحقق نجاتى ! . . .

وفى الصباح المبكر نهض « شكرى » متسلحاً بالكتمان الى حيث يوجد الزورق البخارى والعساكر والضابط الشاب . وشرع الزورق يتحرك فقفز فيه . ولكنه لم يشعر إلا والضابط الشاب ينهال عليه بعصاه هو وعساكره ليحولوا دون نجاته ! . . .

وضاع الامل واضطرب برنامج الرحلة من اوله لآخره . . .

وعاد بعد ان ودع النجاة ليستقبل الخطر !!!

وفى طريق العودة وسط المزارع ارتمى على جذع شجرة يفكر فى شيئين :

(١) مريم . . . »

(٢) حياته . . .

✡✡✡

وكان التعب قد أخذ منه مأخذه . وشعر أنه فى حاجة شديدة الى النوم . ولكن كيف ينام قبل ان يطوف بدار الفتاة . واتجه نحو الدار فوجدها مقفرة . وعلم ان الاسرة القبطية رحلت الى مسقط رأسها

وعاد الى الفندق فوجد غرفته لم تحتل بعد . ووجد على المنضدة ورقة صغيرة اخرى فيها هذه الكلمات : « سيصلك رسول وخطاب عند وصولى باخبارى. فدنى بأخبارك فان كنت قد سافرت فاكتب إلى بعنوان والدى (. . . . . .) لأطمئن على سلامتك . لك عواطفى وعهدى » . . .

✡✡✡

وكان الموقف يستلزم عملا حاسما وسريعاً . . .

ولـكنه لم يوفق للعمل الحاسم السريع فى اليوم التالى . بل شعر بوحشة لم يشعر بها طوال أيامه بأسيوط . فقد كان اخوانه الموظفون يتحاشونه ويتباعدون عنه . اذ قد سرى بينهم انه « محل تحقيق » . . .

وفى المساء وفد عليه شاب اسمر اللون ، عصبى المزاج ينتفض خوفا . وتقدم الشاب فعرفه بنفسه بصوت خافت قائلا : انه قريب « مريم » ومساعد المحققين . . . ثم ســاءله بلهجة الخوف : الم تدبر أمرك بعد ؟ !

قال : دبرت . وفشلت . . .

قال : لايزال فى الوقت متسع . إن أوراقك تحت يدى وسأؤخر عرضها . ولـكن لاتطمع فى أكثر من يومين أوثلاثة أيام . . . وانى ادلك على طريق . لقد عادت قطرات السكة الحديدية للمسير . ولـكنها قطرات حربية فقط تحتاج الى « جواز سفر » . . .

قال شكرى : ولـكن من يمنح الجواز ؟

قال : السلطة العسكرية . . .

فضحك « شكرى » وقال : إذن الجأ الى الاتهام فى فرارى ! !

قال : انهم لم يعرفوا شخصيتك بعد . وانما الكلام حول النشيد وحول البحث عن مؤلفه . فعندك فرصة !

قال له : شكراً . كيف الأسرة ؟!

قال : رحلت . ولـكنى سمعت ان فى البلدة حوادث حصلت أمس واليوم . وسأبلغك اياها ان تأخر فرارك . . .

قال : بالله عليك لا تضن على بالتفاصيل . ثم ودعه شاكراً وانصرف الشاب . . .

☆☆☆

كانت حالة « شكرى » النفسانية سيئة للغاية : فى البلدة حوادث ! ! ولكن ما شأن « مريم » بها إلا ان تذعر أو تخاف . وقد ذعرت وخافت فى أسيوط . . . لا بأس ! ان القطر كله حوادث . . .

☆☆☆

وتحرى « شكرى » فعلم حقيقة ان « القطرات الحربية » تسير . ولكنه علم ان « ويصا بك » من كبار الوجهاء والاغنياء طلب جوازاً بصفته قنصل أمريكا فرفض الطلب . . . وان الحصار تام وانه من المستحيل ان يظفر بتلك الامنية ! . . .

☆☆☆

وأخرج « شكرى » أوراقه يفحصها ورقة ورقة ليعدم منها مايمكن ان يكون محل شبهة . فوجد بينها « تذكرة العضوية » بناديه القاهرى الذى تبارى مع نادى أسيوط . وخطرت له فكرة طارئة فقال فى نفسه : « الانكليز قوم « سبورت » يقدرون الرياضة والرياضيين . والرياضة لادين لها ولا جنسية . وهى تخلق بين جميع الاجناس والملل نوعا من التضامن والتساند والتعاون . فلنجرب تذكرة العضوية والهبة الرياضية » !

وكان يعلم ان من بين مدرسى المدرسة الثانوية الانكليز مدرس يدعى المستر « سنودن »

وكان يعلم انه ارتبط مع بعض أقاربه فى القاهرة بعلاقات صداقة متينة . وكان يعلم انه لعب أمامه فى المباراة التى حصلت بين نادى القاهرة ونادى أسيوط . . .

وتشجع وذهب لزيارته وعرفه بنفسه وذكره بالمباراة . . .

قال الانكليزى : كيف حال ابراهيم ، وحسين ، وكمال . . . ؟

قال : جميعاً بخير . .

قال : ما قرابتك بهم . . ؟

قال : أولاد أعمامى . .

قال : وما رأيك فى المباراة التى حصلت بيننا ؟

قال : لولاك يا مستر « سنودن » لغلبنا كم « دسته » . .

واستغل « شكرى » غرور الرجل وكان مبتدئاً فى « كرة القدم » ومن السهل اغراء المبتدئين

وكانت النتيجة انه ارتاح لمحادثته وتبسط معه ثم سأله : « ولكن كيف لم تعد مع ناديك ؟ »

فأبرز « شكرى » تذكرة العضوية وأطلعه عليها

ثم قال له : لهذا جئت لتساعدنى فى الحصول على جواز سفر فى القطار الحربى . تأخرت عن السفر لأن والدى انتهز فرصة سفرى لاسيوط فأعطانى سبعين جنيها لأشترى « حميراً » . فاسيوط مشهورة بنوع « الحمير » ووالدى مزارع . .

قال : الم تشترك فى الاضطرابات ؟ . .

قال : وكيف ؟ اننى لا أعرف احـداً هنا . وقد سافر أعضاه

« النادى » وبعد يومين اثنين قطعت المواصلات . وأنفقت المبلغ . ولم أوفق الى شراء « حمار واحد » .. وأريد الآن ان اعود ! . .

قال : تعال . .

وأخذه الى الضابط المختص ويسمى المستر « ترنك » وعرفه به . وفى الحال حرر له جواز السفر على الوجه الآتى :

(شكرى . .)

(تاجر حمير)

(يصرح له بالسفر على القطار الحربى باكر)

(وجهته القاهرة)

☆☆☆

والتقط « شكرى » الجواز شاكراً صديقه الانجليزى وعاد وهو يخفى السر على نفسه . . .

تفتيش حتى الساعة الثانية صباحا

وجوب جلاء الذكور عند التفتيش : ...

فى المساء نادى المنادون بأن السلطة العسكرية ستفتش البيوت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ! . . .

وان السلطة تأمرُ بأن لا يكون موجوداً عند التفتيش جنس « الذكور » ممن هم فوق الثانية عشرة ؟ !

وان الطرق ستراقب ويفتش المارة من الآن حتى الساعة المحددة ؟ !

ما الفكرة فى ابعاد الذكور ؟ !

روعت أسيوط كل الروع بهذا النبأ فهجرت الاسر المسلمة فى الحال منازلها وقضت الليل فى الجبانات على بعد كيلومترات . . .

وهاجرت الاسر القبطية الى العراء على مسافات تتراوح بين خمسة عشر كيلومتراً وعشرين

وانتشر الذعر وفقد الناس الادراك خوفا على « الاعراض » !

✡✡✡

العرض ؟ ! ! !

وما مناسبته ؟

قالوا ان الذئاب الوحشية العسكرية سطت على الاعراض فى نواحى الاقليم . وهذا هو سر الهلع وسر الرعب وسر الفرار ؟

ولـكن « شكرى » كان مشغولا برحلته فى الصباح على القطار الحربى فلم يعبأ بهذه الحكاية

ونشر الليل ظلامه على « أسيوط » الباكية، ودقت الساعة الواحدة فكانت شبه خالية من العائلات . ووجدت السلطة انه من العبث تنفيذ الامر فعدلت فى اللحظات الاخيرة . . .

ونام « شكرى » ليلته مضطرب النفس ، قلقاً ، يستشعر نكبة ، ولـكنه لا يحس إلا أنها ستحل بشخصه

☆☆☆

وأخفى الامر عن أعز أصدقائه . لا من ناحية عدم الثقة بالاصدقاء ولـكن من ناحية عدم الثقة بشهوات الالسنة

وفى الساعة الخامسة صباحا نهض من فراشه وجمع حوائجه بنفسه الى القطار

وكان قد أرسل ورقة الى قريب « مريم » فى الليل يخبره بنجاحه وسفره فى هذا الميعاد

وأخذ مجلسه فى القطار فى الدرجة الثانية او الثالثة لا يدرى . ومر الضابط والجنود الانكليز يحدقون فى وجهه لانه كان الغريب والمصرى الوحيد بين الركاب

وأبرز لهم الجواز اكثر من عشر مرات فكانوا يقرأون ويندهشون

وفتشوه مرات كثيرة فلم يجدوا معه بالطبيعة شيئاً . . .

وصفرت القاطرة . . .

وبدأ القطار يتحرك . . .

☆☆☆

يا إلهى . . .

إن القدر القاسى يتمخض عن شيء عنيف رهيب !

كان هذا شعور الفتى . وقد أحس ظلاماً فى داخلية نفسه وهو يودع « اسيوط » المنكوبة

وتحرك القطار وسار متئداً فأطل من نافذة ليودع الذكريات الكريهة والمحبوبة

واذا به يرى رجلا يجرى بسرعة على محاذاة القطار وهو يلهث من التعب ولسانه لايفتأ ينادى : الاستاذ شكرى ... الاستاذ شكرى ...

ويمد يده فيأخذ من الرجل ظرفا مجللا بالسواد . . .

؟ !

. . . .

الظرف بلا عنوان . . .

ممن يكون الخطاب ؟؟

وهذا السواد ؟ !

وهذه المفاجأة ؟ !

من يعلم بسفرى فى هذه الساعة الا قريب « مريم » ؟ !

يا إلهى . . .

هل ينعاها ؟ !

ويرتمى الفتى بعد هذه الخواطر السريعة وقد خارت قواه . ثم تنتابه اغماءة : لا هى باليقظة ولا هى بالخامدة . . .

والقطار يسير . . .

والضباط تمر ذاهبة آيبة . . .

وهو يفيق من المفاجأة ولايملك ان يختلس فرصة لفض الخطاب . . .

ولـكنه يشعر أن فيه « نكبة » فيبكى لها سلفاً وتحت الحساب . . .

☆☆☆

ويفض المسكين التعس الخطاب بيديه المتشنجتين فيجد الخط خط « مريم » دون ان يقرأ فيحمد الله

إنها لم تمت . . .

ربما كان الميت أباها او امها او واحداً من ذوى قرباها ...
وينتعش قليلا ...
ثم يتشجع ويقرأ الـكلمات الاولى فى الخطاب وها كها :

« **شكرى ...**

حسناً . توجيه عادى فيه كلفة زائلة ...
ثم يقرأ الفقرة الثانية فتدوى فى القطار صرخة داوية كالتى دوت فى غرفة المكتب منذ شهور ...

ويسرع الجنود والضباط فيجدون الفتى نصف ميت فيتصدقون عليه بشىء من «الـكلونيا» و «النشادر» ثم يعود اليهم برودهم الانكليزى فيتركونه وشأنه ...

« **اعزيك فى بروت الثانية !** ... »

« **لقد ماتت مريم !** ... »

ياله من غبى . استيقظ يابنى . وثب الى رشدك . كيف تصدق وفاتها وهذا نعيها بخطها . كيف تنبئك الميتة بأنها ماتت ؟ !
يا لك من متسرع . اقرأ اقرأ !!!
ويعاود الفتى ادراكه ، ويطمئن نوعاً !!! ثم إذا بصرخة ثانية أقوى من الاولى . واذا به يهجم على الضابط وعلى الجنود ينشب فيهم أظافره ويعض أجسامهم بأسنانه . ثم اذا به يتجه فجأة نحو النافذة يحاول القاء نفسه فى عالم الفناء !!!

ويقبضون عليه بأيديهم الفولاذية فيسقط بين ايديهم على الأرض فاقد الرشد مغمياً عليه . . . . . .

☆☆☆

ان بقية الخطاب كانت ما يأتى :

« انه ذئبا او ستراليا افترسنى . . . »

« حاولت الانتحار وسأحاوله . . . »

« خطبتك مفسوخة . . . »

« الوداع يامسكين . . . »

« ثروت الثانية »

« مريم . . . »

. . . .

. . . .

عليل ...

فى حى شبرا شارع نسيت اسمه يتفرع من شارع « شكولانى » ..
المنزل نمرة ٤ فى هذا الشارع الذى نسيت اسمه منزل أنيق ...
وفى ذلك المنزل الانيق ، وفى الدور الارضى . غرفة كسيرة الجناح أعدت « للعليل » القادم من أسيوط ...

يتلصص سكان المنزل حول باب الغرفة بحذر ووجل . ولهفة وفضول ...

« شكرى » مريض !
مرضه : صفرة . وهزال . وشرود ...
الثمانون كيلو هبطت الى الستين ...
الدكتور « سليمان عزمى » يعود المريض صباحاً . ومساء ...
ويقول أصدقاء المريض الاطباء : انه « البرد الشديد » تارة ــ أو « الشراب » تارة أخرى ــ أو « الخوف » حيناً ــ أو « جو أسيوط » أحيانا

طبهم جميعاً خائب : «شكرى» ما شكا برداً ، ولا شرب شراباً ، ولا شعر بخوف ، ولا تأثر بجو ؟

مرضه فى « القلب » . ولكنه مرض لم تكشفه يد طبيب ، ولم تنبىء به « سماعة »

كان المرض « ثروت » الاولى . و « ثروت » الثانية !!!

✡✡✡

كانت حكاية الحب ومآسيه بعيدة كل البعد عن أذهان أفراد الأسرة ...

والعشاق نوعان : نوع فياض . ونوع كتوم ! ...

وعند النوع الثانى العشق سر مقدس ! ...

وهؤلاء هم الذين يتعذبون ...

وصديقنا كان من النوع الثانى ...

☆☆☆

وكانت وطأة المرض عليه عنيفة : كان يجب ان يستلقي على ظهره فى فراشه وان يسترخ ... وأن لا يتناول الا اللبن فى الصباح ، والظهر، والمساء . وكان يجب أن يدلك جسمه بالكلونيا بين حين وآخر. ثم كان يجب ان لا يتكلم ! .. وكان هذا كل ما يتمناه ...

وكان عذراً يختفي وراءه . ويخفى سره المعروف للقراء ... ولكن كان لا بد له ان يرسل تلغرافا . ولمن ؟! لوالد مريم ! ! يا للحرج ... ماذا يقول ؟؟ أخذ ذهنه المضعضع يفكر فلا يجود ... لكن كان لابد له أن يفعل . ويا لجرأة العشاق ! أخذ ورقة وسطر بعد العنوان هذه الكلمات : « أطلب يد مريم . اريدها زوجة . اتوسل اليك . بلغها وأنقذها . أعتذر عن الحضور بمرضى الشديد »

شكرى

وكان لا بد له من رسول جاهل لا يقرأ ليرسل التلغراف . وخادم المنزل توافرت فيه الصفة . فأعطاه التلغراف وزوده بالكتمان !

الاب والام ! . . .

فى ناد من اندية الرياضة . فى مدينة من مدن الاقاليم . سألتنى مسز « والنون » هذا السؤال : أيهما أفضل زوجى ، أم ابنى ؟

قلت : لم أفهم سيدتى جيداً . عفوك ؟

قالت : المشكلة بينى وبين زوجى هي ما يأتى . أنا وهو مقيمان فى القطر المصرى . وابنى « دجلس » يتعلم فى الوطن ، فى انجلترا . . . والولد فى حاجة الى الاشراف والى الرقابة والى الاعداد . وزوجى هنـا محتاج لخدمتى . . . لمن اكرس وظيفتى ؟

قلت : لزوجك سيدتى ! وبلا تردد !

قالت : و « دجلس » الصغير ! . . .

قلت : سيكبر ويترعرع ويشتد ويكد ويكافح ويطمع ويطمح ويحب ! وهو فى كل ادواره هـذه لن يفكر فى « الاب والام » إلا تفكيراً ثانوياً . .

أما مطامعه وميوله وكفاحه وحبه فستحتل المكانة الاولى . والمنزل الاسمى ! . . .

فى « الابناء » عقوق طبعى . وهم إن أدوا للوالدين الواجب فيالبعد المسـافة بين عواطفهم نحوكم وعواطفكم نحوهم ! زوجك أولى بعطفك وحبـك ووفائك وولائك . وزوجك أبقى وأوفى . فكرسى وظيفتك للمسكين . ودعى الابن للزمن . . .

هذا « شكرى » هل بكى لابيه أولأمه مثل ماقد بكى لثروت ولمريم؟

هل فكر فى ابيه وفى امه مثل ماقد فكر فى ثروت وفى مريم ؟! وهؤلاء الـكبار العظام هل فكروا فى « الزوج العجوز » مثل ما قد فكروا فى مطامعهم ووظائفهم ومرتباتهم وسعادتهم ؟!

الدنيا المادية لم تترك مجالا لعواطف الابناء نحو الآباء إلا بقـدر . ولـكنها لم تمس بحال نار الحب المشتعلة فى صدور الآباء للابناء . . .

وتسائل الابناء الفلاسفة فى هذا العقوق فيقولون لك بكل جرأة : لم يمن علينا الوالدان ؟! إنها لحظة من لحظات اللذة والمتعة مضياها معاً فجئنا الى الدنيـا رغم أنفهما وتحت ضغط البهيمية الحادة ، فهى عملية تفريخ . . .

فاذا ما ذكرتهم بالعناء والتعب فى عهود الولادة والفطام والمرض والتربية والاعداد ، أجابوك بكل جرأة : انه واجب ترتب عليهما وأثر من آثار الجريمة . . .

فاذا ما لمحت لهم بالسعادة التى يتمتعون بها فى الحياة وبالمركز والحيثية ، اجابوك بكل جرأة : اين هي السعادة ؟! إن الحياة مضنية منهكة فهى اساءة وليست احساناً . . .

✡✡✡

هذا العقوق الملموس المحسوس لم يغير من طبيعة الآباء نحو الابناء فبقيت كما شـاء لها الله ، بلسما للجراح ، ودواء وشفاء للأبناء المرضى ، والمنكوبين والمجروحين . . .

وهكذا يقطع الفتى منا أشواطه المختلفة فى الحياة فتتلقاه أحضان ، وتهجره أحضان ، وتنبذه أحضان ، فاذا ما صرعه الـكر والفر واللف

والدوران ارتمى فى النهاية بين أحضان الوالدين . . .

وهي أحضان لا تتعب ، ولا تخون ، ولا تكب ، ولا تتنكر ، ولا تجحد ، ولا تتدلل ، بل هى تحت أمر الابناء عندما يحل بهم الشقاء ...

هي الكهف ، وهي الملاذ ، وهي الدير ، وهي الوقاية ، وهي الشفاء !!!

هى معبد التكفير عن الخطايا ، وهي مورد التوبة ، ومصدر الغفران . . .

☆☆☆

وأذن الدكتور « سليمان عزمى » للمريض بعد شهرين أن يتريض. وأن يسير باقتصاد . وان يتناول الليمونادة ، والتمر هندى ، والبرتقال وغيرها من السوائل ، فخرج من سجنه يتوكأ على عصاه ويجلس فى أقرب قهوة يقدم نفسه لاصدقائه من جديد بعد أن تغيرت سحنته وبرزت عظامه وغارت عيناه ...

أما نزهته فكانت الى مكتب التلغراف . فهو لم يتلق رداً من والد مريم . فاخذ يرسل برقيات مختصرة قاصرة على السؤال عن الصحة تارة لابيها وتارة لقريبها صاحب واقعة النشيد . فلا يحظى برد ! . . .

السيدة مريم

أشفق على القراء ان اروى لهم تفاصيل الافتراس . وتفاصيل النكبة .
وحش من وحوش الغابات لا من وحوش الآدميين ، مزهو بقوته وحيوانيته ورصاصه وحديده ،هاجم بفرقته بيوت اعيان البلدة المفجوعة في الظلام بحجة التفتيش عن السلاح ، عثر على الفتاة في ركن من الاركان فامر باعتقال الرجال وحجز باقى السكان في غرفة . ثم اختلى بالفتاة فكانت هى ، وهو ، والشيطان ، وأخس ما في هذه الدنيا من نذالة وعفونة وسقوط ! . . .

ونشبت المعركة الحامية بين الذئب الضارى والحمل الوديع . . . وماذا تنتظر ؟

إن في المرور بسرعة على تفاصيل الفاجعة بلاغة يخجل أمامها البيان والاطناب . . .

ولن يقوى قلمى العف على الوصف وعلى الرواية . وأقر بعجزى وأفضل أن اسدل الستار . . .

وخرجت الفريسة النبيلة البريئة المختلسة من النضال نصف ميتة . وقد شج رأسها وسال الدم على وجنتيها . وتركها الوحش الكاسر وقد فقدت حتى الامل في الامل . . .

وجاء الاب من المعتقل وزحفت الام من الحجز وتجمع الاقارب والجيران فلما تبينوا الامر سقطوا صرعى أمام الفضيحة !!! . . .

والدم في الصعيد يغلى ويفور بغير منطق وبغير تفكير . فقد زحف

الرجال المنكوبون على المعسكر يحاولون الأخذ بالثأر فكانت فاجعة أخرى وكانت مذبحة ...

وعاد الأب كالمجنون يريد أن يثأر لعرضه. ولـكنه لا يظفر بالمجرم أين هو ؟ ومن هو ؟ وكيف السبيل اليه ؟ . . .

إذن ليلطمن وجهه، وليضربن برأسه الحائط، ولـكن كيف يشفي الغليل ؟! . . .

يا للخواطر السوداء تنتاب فاقدي الرشد والمجانين . ان الرجل الثائر لعرضه يختطف سكينا ويشحذها شحذاً ثم ينطلق كالسهم الى فلذة كبده . الى المظلومة . الى الجثة العزيزة الغالية . الى ابنته مريم ... ثم يرفع يده هاتفاً : ارحمني يارب . ثم يهوى بها للقضاء على الفتاة ...

وهو اذ يوشك ان يسفك دم ابنته بيديه . يشل القدر العادل هذه اليد الطائشة وليس بينها وبين الاحشاء إلا ثانية . . .

أما رسول العدل ورسول السماء فكان شاباً قوياً شهماً، قبض على الذراع بأسرع من لمح البصر وانتفض كالاسد يزأر ويذود ! ! !

قال الرجل : أنقذتها . . .

قال الشاب : من ابيها . . .

قال الرجل : وهل انقذتها وانقذت أباها من الفضيحة ؟ !

قال الشاب : سأفعل . . .

قال الرجل : أترد العرض المنتهك ؟! . . .

قال الشاب : سأفعل ! ! !

وهنا يرتمى الرجل من الخذلان واليأس يبكي كالثكلى . ويذرف الدمع السخين . . .

☆☆☆

وتتنبه الفتاة رويداً رويداً ثم تصرخ صرخة ما أشقاها وما أوجعها . . . ثم تتوالى الصرخات بأنغام الدهشة ، والاسى ، والوجيعة ، واليأس ، وحولها سيول الدموع ! . . .

الجو كله وجوم . ومن يستطيع أن يتكلم ؟ بأية لغة ؟ وبأى معنى ؟ . . .

ان المصاب يجل عن العزاء . . .

الفتاة العظيمة التى كافحت كفاح الابطال ، وأصيبت بالرضوض والجروح لا تخضع للنكبة ، بل تنتصب واقفة وتتمتم : ليس بى شىء . اريد أن أتقيأ . سأذهب الى المرحاض . . .

وتذهب أو ترحف الى المرحاض مبتسمة ابتسامة صفراء نكراء وبقفزة لم تدركها القلوب المحيطة بها وبمصابها . . . تصل الى المرحاض بسرعة البرق الخاطف ، فتقبض على زجاجة « حمض الفنيك » وترفعها الى الفم الانيق وتوشك ان تتجرع ! ! ! . . .

ولكن الشاب القوى الشهم رسول العدل ورسول السماء شل يدها كما شل يد أبيها . . .

وهوت الزجاجة على البلاط تتهشم وتسيل ! . . .

ثم حملها بين ذراعيه الى غرفتها وأجرى لها بقوة الايمان الاسعاف

بالرغم منها . ثم أرصد عليها وعلى ابيها الحرس وغاب لحظة ثم عاد ومعه قسيس ؟ . . .

☆☆☆

وفى وسط هذا المأتم يتقدم الشاب القوى الشهم رسول السماء الى أبيها طالباً يدها . . .

يا للمفارقات ! ويا للمتناقضات ! ويا للمفاجآت ! . . .

الشاب استاذ مدرس يحمل أرقى الشهادات ويرتفع بنسبه وحسبه على اقرانه . فهو مطمع كل عروس . وأمل كل أب وأم . . .

ولكن الاب يجيب الدعوة النبيلة بالرفض النبيل . . .

ولكن الفتاة تستقبل هذه البشرى المنقذة باللطم وبالعويل . . .

يا أرق وأرقى العواطف المتبادلة : علتك ان فى طريقك كرامة ! وفى طريقك تضحية ! . . .

الشاب يضحى . . .

والاب والفتاة تحت ضغط الكرامة يأبيان التضحية ! . . .

ولكن هذا الشاب الجبار كان مستعداً لكل معضلة . ها هو يوجه للاب السؤال الحازم : امصر أنت على الرفض ؟ . . .

فيجيب الرجل : بدون تردد ! . . .

فيقول الشاب : اذن وداعاً . . .

وتنطلق من مسدسه على رأسه رصاصة تخيب ولا تصيب ! . . .

وينخدع الرجل بهذه المناورة المسبوكة فيقبض على يد الشاب ويهتف : قبلت ! قبلت ! . . .

وينقلب المأتم الحزين عرساً حزيناً ، ويتولى القسيس عقد الزواج ومريم مستسلمة !!! . . .

وهكذا يبر الشاب بوعده فينقذ العائلة من الفضيحة ويرد العرض المنتهك . . . .
. . . .

واجبى ! ...

الهزيل العليل خريج المرض يتوكأ على عصاه ويسير ببطء الى قهوة منعزلة فى حى شبرا وكله هواجس وأفكار ...

انقطعت صلة « شكرى » بالآنسة « مريم » وبأخبارها من يوم ان أرسلت له الخطاب الاسود . وكل ما يعلمه هو ما ورد فى ذلك الخطاب المشئوم : « أن وحشاً أوسترالياً افترسها ــ وأنها حاولت الانتحار وستحاوله ــ وان خطبته مفسوخة » ...

لم يتردد الشاب الاصيل فى أن يحول قدر ما يستطيع دون محاولة الانتحار . ولم يتردد فى اختيار الموقف النبيل . فارسل تلغرافه الى والدها يطلب الزواج من المنكوبة فى أعز ما تملك ويتوسل الى الوالد فى إنقاذ الفتاة . ولكنه لم يتلق رداً ...

وكانت فى الواقع مجازفة صبيانية من « شكرى » . فان خطبة تعرض بالتلغراف لهى خطبة عجيبة ! ثم ماذا يعلم عنه والد « مريم » ؟ ماذا يعلم عنه ، وعن كفاءته ، أو ديانته ، أو حيثيته ، أو أسرته ؟ ! لا شىء ...

ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل المريض طريح الفراش الواهى القوى . ماذا كان يستطيع أن يفعل للحيلولة دون نكبة الانتحار ولتحديد موقفه إزاء الفاجعة ؟ !

لا شىء إلا ما فعل ...

ها هو اليوم قد استرد شيئاً من عافيته . وأصبح كفئاً نوعاً ما للسير ... وللبحث ... وللتحرى ! ...

ولكن التلغرافات المتوالية التى لم يتلق رداً عنها ماذا كان مصيرها ؟ وماذا كان شأنها ؟ وهل كان اهمال الرد لنكبة وكارثة ؟ أم لاحتقار وازدراء ؟ أم لمجرد الاهمال ؟

أخذ يفكر ويفكر حتى كشف الغبي فجأة انه فى منتهى الغباء ! . . .

كان امضاؤه الكريم على التلغرافات « شكرى » ؟ !

ومن هو « شكرى » هــذا من بين سكان القاهرة . وما هو لقبه وعنوانه ؟ !

إذن « مريم » معذورة ووالدها معذور . وإذن فعل التلغراف الاول فعله بما فيه من انذار بعدم الانتحار . وبما فيه من نبل وتضحية بطلب الزواج . . .

فلم يبق عليه إلا أن يذهب . . .

☆ ☆ ☆

ورد التلغراف على والد « مريم » بعد عقد الزواج بأيام . فلم يفهم منه شيئاً . . .

انه لا يعرف « شكرى » هــذا ولا يذكره . هل يعرض البرقية العجيبة على زوج ابنته ؟ لا ! . . . انها سخافة وحماقة . ففيها وحولهـا ما يمس كرامة الزوج الشهم وما قد يمس كرامة القتاة . . .

إذن « مريم » وحدها التى تعرف السر . . .

ويذهب الوالد بتلغرافه الى الفتاة ــ وهي لا تزال تئن من الجروح والرضوض ومن تأثير الحوادث المفاجئة ــ فيقرأه عليهـا فتنتفض مضطربة وتصدر زفرة حارة تعقبها دموع . . .

ــ ماذا يا ابنتى ؟

ــ لا شىء يا والدى . ان فى الدنيا اخلاقاً ! . . .

ــ من مرسل التلغراف ؟

ــ منقذى فى اسيوط ! . . .

يذهل الوالد هنيهة ويعاود ذا كرته . ثم كأنه يلحظ ما انتاب كريمته من ذكريات أليمة . ثم كأنه يدرك انه لا يدرك شيئاً فيفر من التفاصيل فراراً ويسألها :

ــ انرد عليه بالشكر وبأنك قد تزوجت ؟ !

فتبتسم الفتاة ابتسامة صفراء منكرة . وتغطى وجهها بيديها الهزيلتين وتستغرق فى التفكير وقد تجلى أمام عينيها الموقف المدهش العجيب : كارثة ــ وزواج ــ وخطبة بعد الزواج ــ ونبل من الزوج ــ ونبل من الخطيب الغريب ؟ !

ويحدق الوالد فى التلغراف ثم يصيح فجأة : من هو شكرى هذا ؟ إنه بلا لقب وبلا عنوان . فماذا نفعل ؟ !

قالت الفتاة : لا شىء ياوالدى . لننتظر ولنفكر . . .

☆☆☆

وهل تدرى فيم كانت تفكر « مريم » ؟؟

فى الانتحار وفى الانتحار دائما . . .

إنها بين نيران ثلاث :

نار الـكارثة ــ ونار الزوج الشهم ــ ونار المحب الوفى !!! وكيف

توفق بين هذه الاوضاع المتباينة . ان شخصيتها هى الاســاس . فاذا انعدمت هذه الشخصية استراحت وأراحت . . .

ولـكنها تريد الانتحار كاملا لا شروعا فى انتحار . وهي لا تملك الوسائل وهى على السرير . فلتصبر حتى تملك شيئاً من قواها . وحتى تستطيع ان تختار أسهل واسرع وسائل الهلاك . . .

إن الصغيرة الواهنة المهدمة ضعفت عن ان تقاوم جيوش الهم والغم والذكريات والمواقف الفذة المتناقضة ، فاشتد عليها المرض وحمدت الله على اشتداده راجية ان يكون فى « الموت الطبيعى » خلاص من « الموت الصناعى » وخلاص من كل ما فات . . .

واجتمع الاطباء وتشاوروا وتداولوا فقرروا نقلها فى الحــال الى المستشفى فى أسيوط . . .

وحملها الاب المسكين . والزوج الشهم الى مدينة الذكريات الاولى . الى مدينة الاحلام والآمال . . .

. . . .

. . . .

رحلة ...

« شكرى » يستأذن والديه فى الغيــاب يومين أو بضعة أيام عن القاهرة .. هما يسألانه عن السبب فيقول : انها « رحلة » ...
رحلة لترويح الخاطر واستنشاق الهواء الطلق بعد المرض ...

فى محله . ولكن أين ؟

والجواب ليس من الصعوبة بمكان . أنه يستطيع ان يلفق أ كذوبة محبوكة يتخلص بها من التحقيق وقد فعل ...

و « الشنطة » الصغيرة الحجم التى اختارتها أيدت دعواه . وقد وضع فيها بعض الحاجات الضرورية لفسحة قصيرة . وستعرض حتما لهذه الحاجات الضرورية فى الحين المناسب . اذ كانت بينها « حاجة » تلفت النظر وجدت مدسوسة دساً بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله ...

☆☆☆

وهو يطلب عربة ويساوم الحوذى على الاجرة بحساب الســاعة .
إذن له جولة فى القاهرة لا يعلمها إلا الله . وهو !

ويقبل والديه وإخوته واخته الصغيرة . ولــكن ما باله يضطرب نوعاً ما ؟!

لا شىء . انهــا الرحلة القصيرة . والرحلة القصيرة بعــد المرض الطويل ...

☆☆☆

ويسير الحوذى مسافة امتار ثم ينحرف الى اليمين فى شارع شكولانى ثم الى اليسار فى شارع شبرا ثم يستمر ويستمر طويلا حتى يصل الى ميدان « الاوبرا » ثم ينحرف الى اليسار حتى يقف أمام محل « يلدز » الحلوانى . . .

« يلدز » ؟!

هل يذكر القراء أن هذا الاسم مر عليهم وهم يقرأون هذه القصة ؟

أين ؟ وفى أى موضع ؟

نعم . . .

فى السنة الماضية . سنة ١٩١٨ . فى الساعة الثالثة بعد الظهر . فى ساعة القيلولة أو قبل الغروب . . .

عند ما كان يحمل من ذلك المحل هدية متواضعة لصديقة النهار . المرحومة « ثروت » !

وها هو يشترى بعض الفطائر بغير ترو وبغير تدقيق لا فى الصنف ولا فى الثمن . والعامل « الرومى » مذهول يقترح فيجاب اقتراحه . حتى تتم عملية الشراء والدفع . فيحمل الحمل الخفيف الثقيل الى العربة ويأمر الحوذى بالذهاب الى بائع زهور فى شارع المغربى فينتقي الزهور الحزينة الباكية . . . ثم يأمر الحوذى بالذهاب الى سوق الخضار بميدان العتبة الخضراء فيشترى فاكهة الموسم بجميع أنواعها . . . حتى اذا تمت له كل هذه الصفقات وجلس فى العربة سبح فى بحر الخيال . . .

ويلمح الحوذى ذلك الشرود فينبه الزبون بهذا السؤال :

— الى أين يا سيدى ؟ !

فيجيب : الى جبل المقطم . . .

☆☆☆

هذا قبر القتيلة ! . . .

وهذا القاتل ! . . .

موقف من أتعس المواقف البشرية . وإن الزيارة هي الاخرى في القيلولة وقبل الغروب . . . وتفد الذكريات تزاحم الذكريات ثم تنتهى الى المصرع ! . . .

ويقف « شكرى » جامداً ثم يرتمى فجأة على القبر واهي القوى مضعضع الحواس حتى يأتى حارس القبور فيعنى به ويقدم له الماء . . . ويظل فتانا شارداً ذاهلا ثم يصيح : « رحماك ثروت » . . .

ثم يتطلع مستنجداً بحارس القبور ويشير الى زهوره ، وفاكهته ، وفطاره . . . فيتولاها ناثراً الاولى على القبر ، وموزعاً الثانية والثالثة على الفقهاء الذين أقبلوا مسرعين كأنهم على ميعاد ! . . .

ويرتلون ويقرأون ويدعون ويترحمون . . .

ثم يشير اليهم الحارس بالانصراف وينسحب على مقربة من القبر ، ويترك القبر ومن فيه لزائر القبر ! . . .

يطيل الكتاب القصصيون فى أمثال هذه المواقف . كفاءة لا أملكها أو هى صنعة لا أحذقها ، ولا أفهمها أيضا ، وأنا قانع بأن أوجد قرائى حيث يوجد أبطالى . ثم لا يحتمل الموقف بعد هذا اطناباً ولا تفصيلا . شاركوا المؤلف فى تصويره ولا تكلفوه عناء فى ابرازه جملا

وكلمات وصياغة . هي حالة نفسانية أحسها كما تحسونها انتم . اليست شجناً وحزناً ودموعا ، وأنات وحسرات ، وأسى ؟!

ثم فى الموقف شيء من الوفاء . وفاء المحبين الاحيـاء للمحبين الاموات !

رحمة الله على ساكنى القبور . . .

انهم لا يطالبون الاحياء الا بالذكرى . . .

وها هو « شكرى » يذكر « ثروت الاولى » . قبل ان يرحل الى ثروت الثانية . . .

. . . .

. . . .

... بل نعيش !!!

طالت زيارة القبر ...

ما العمل ؟

ايعود الى المنزل وقد ودع من فيه ؟

أم يسافر فى قطار الليل فيصل فى نصف الليل الى البلدة الصغيرة فيكون محل ريبة وموطن شبهة ؟

لا . ليقض الليلة فى فندق ، على أن يأخذ قطار الصباح ...

☆☆☆

ويبيت فى فندق حتى اذا ما اصبح الصباح نهض يعيد نظرة على الحاجات » التى فى « شنطته » ...

كل ما فيها مألوف يعنى بوضعه كل مسافر فى رحلة قصيرة . ما عدا زجاجة صغيرة فيها مسحوق ابيض ؟ !!

هذه هى « الحاجة » التى قلنا عنها انها تلفت النظر . والتى قلنا عنها أنها وجدت مدسوسة بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله ...

ان هذه الزجاجة الصغيرة ذات المسحوق الابيض كانت محل عنايته وحرصه . والمسحوق الابيض كمية صغيرة . فما هو ؟

لعله « شبكة » الخطبة . أو هدية العاشق للمعشوقة ؟

سنكشف امرها بعد حين ...

☆☆☆

— (. . .) من فضلك

ويقطع « التذكرجى » التذكرة الى (. . .)

وينزوى « شكرى » فى ركن من الاركان يحدق فى المصحف الصغير ويتلو كلام الله

ويصفر القطار . ثم يسير . . .

☆☆☆

السفر طويل . بماذا يقطع « شكرى » الوقت ؟

لقد تلا كثيراً من كلام الله

فليفكر فيما هو ذاهب اليه . وفيما عساه ان يسمع ويشهد :

« لئن وجدتها فارقت الحياة منتحرة . فعندى الرد السريع !

« ولئن وجدتها على قيد الحياة فسأطلب يدها . وهى لن ترفض بقى أبوها وبقيت مشكلة الاختلاف فى الدين . . .

« والقلب هو الدين . هكذا قالت هى ! فهل يقول أبوها مثل ما قالت ؟ !

« أستبعد ! واذن ما العمل ؟ هل تفر معى ؟ نذالة وخسة وجريمة ليست فى عرفنا ولا فى عرف التقاليد . . .

« واذا وجدتها قد نسيت عهدها وعهدى فماذا أفعل ؟ ! لا شىء . . . أنسحب مقهوراً وأعود بعد ان اكون قد سجلت وفائى وواجبى ! . . .

« على الفروض الثلاثة : انى لتعس ! . . . »

ويغزوه النعاس ولكنه لا يكتحل نوما . فان أفكاره . وحركة

القطار . وجلبة المحطات . وعدم توافر الراحة . وثرثرة الركاب . كانت كفيلة باقلاقه من حين الى حين . . .

وهو فى كل انتباهة يقلب المسألة على وجوهها فلا ينتهى إلا الى الفروض الثلاثة فيقول :

انى لتعس . . .

☆☆☆

يا عجبا ! . . . » ،

أتدرى وقد وصل بعد طول السفر وطول التفكير ماذا قد خطر بباله ؟ . . .

أن لا ينزل وأن يعود ! . . .

خاطر التردد هذا لا يرد عليه إلا بعد ان يتجلى له ميدان الموقعة . . .

ولكنه ينزل أخيراً . . وهو يرتعد من هول ما قد يسمع !

ويحوطه ويحوط « الشنطة » التى بيده الشيالون ، فيسأل أحدهم باضطراب ووجل وتوسل :

— هل تعرف منزل « فلان افندى » ؟ . . .

فيجيب الشيال : فلان افندى ؟ !

فيقول « شكرى » : نعم أبو « مريم » ! . . .

فيجيب الشيال : آه . . . مريم . ولدى ! ربنا يشفى . . .

ويطمئن الفتى ويحمد الله . انها لم تمت ! . . .

ويقفز أمام الشيال من شدة الفرح فيوقفه هذا وينبئه بأنها فى المستشفى بأسيوط . . .

وهنا يصفر القطار مؤذناً باستئناف المسير.فيختطف شنطته فى الحال ويرمى الى الشيال قطعة فضية ويستأنف السفر . . .

الى أسيوط ! . . .

. . . .

. . . .

كان يجب على « شكرى » أن يتنكر . وان يبالغ فى التنكر . . . انه معروف فى أسيوط : فى الدوائر القضائية وفى دوائر الاسر الكريمة . .

وكان لا يعنيه أن المحاكمات دائرة . وان نشيده كان محل تحقيق. بقدر ما كان يعنيه ان لا يمس مركز « مريم » وأسرة « مريم » بسوء . . .

انه كان يجهل كل شىء . والظهور قد يجر الى مشاكل . فالحكمة تقضى بان يتوارى قدر الاستطاعة حتى يؤدى مهمته . . .

وقد وصل فى النهار . ولئن كان المرض الطويل قد غير ملامحه فقد كان من الممكن ان يعرف وان يكتشف . . .

لم تكن له الا وجهة واحدة : المستشفى . . .

وله فى المستشفى طبيب وصديق . اختار ان يجعله موطن السر . ووسيلة الوصول الى المريضة . . .

أخفى وجهه بقدر الاستطاعة وركب عربة الى مسكن هذا الصديق وكان يسكن وحده هو وخادمه . فلما وصل طرق الباب فوجد كل شىء لم يتغير . وشاء الحظ الحسن ان الخادم لم يعرفه ولم يذكره فسأله عن سيده فقال : انه يستريح فى غرفة النوم . . .

وجلس فى غرفة الاستقبال . ولم تمض دقائق حتى حضر الصديق

الطبيب : شاب من سنه ومن وسطه . وزميل من زملاء المدارس الثانوية الاعزاء . . .

وهذا أيضا لم يعرفه الا بعد محادثة قصيرة

— شكرى ! . . .

— أنا هو . . .

— كيف ؟ لقد تغيرت كثيراً . انك مريض

— نعم ! ومهدم .

— دعنا من المجاملات ، لم جئت الى أسيوط وحكاية نشيدك لاتزال حية ؟

— للضرورة أحكام . وأنا فى حاجة قصوى اليك . . .

وجلس الصديقان أحدهما مأخوذ بالمفاجأة مشفق . والثانى متحفز يود ان ينهى مهمته . . .

— أنت فى حاجة الى الراحة بعد السفر . والى الطعام

— أما الطعام فليست لى به حاجة . تناولته فى القطار . وأما الراحة فأشعر حقيقة اننى محتاج اليها يا دكتور

— اذن تفضل

ويذهب به الى غرفة نومه فيقول له « شكرى » :

— متى تذهب إلى المستشفى ؟!

— عندى « نوباتشية » الليل . من الساعة السابعة مساء . وسأبيت هناك . . .

— هل عندكم فتاة ؟!

— كثيرات . . .

— فتاة اسمها « مريم » !

— آه . . . ! المسكينة

— أهي فى خطر ؟

— زال الخطر الجسمانى . وبقى الخطر النفسانى . . .

وحينئذ يهتز « شكرى » هزة جدية . ويسائل صديقه بلهجة حازمة عن ثقته فيه وفى اخلاقه ورجولته . فيؤمن هذا وقد تأثر من لهجة الكلام وأسلوب التعبير . . .

— أنا محام وانت طبيب . وكلانا موطن للسر وللكتمان . أيضيرك أو يضير واجبك أن تجمعنى بها منفردين فى أية فترة من فترات الليل أو النهار ؟ . . .

— لا . انى أثق بك تمام الثقة . ومن السهل أن تراها وحدك بعد الساعة السابعة وسنذهب معاً . . .

— اشكرك . انك تعاون فى أمر مقدس ياصديقي . وامهلنى اخبرك بالتفاصيل بعد المقابلة . . .

ويقترح الطبيب الشاب على « شكرى » أن يبقى فى المنزل حتى يحين الميعاد . ويستطيع ان يقطع الوقت فى القراءة وفى الاستراحة حتى يعود اليه . ثم يرتدى ملابسه ويخرج . . .

☆☆☆

وفى الساعة السادسة يصلح « شكرى » من شأنه قليلا . ويصل صديقه الطبيب وقد استرد طبيعته المرحة فيمازح « شكرى » ولكن هذا

يجاريه بتكلف . فيقول له : انك متعب يا « شكرى » وليست هذه عادتك . أمغرم بالفتاة انت ؟

فيجيب : ستعرف كل التفاصيل فلا تتعجل ! . . .

ويصلان الى المستشفى ويدخلان غرفة الطبيب الخاصة وقد شمل المستشفى سكون يناسب الموقف المقبل . . .

☆☆☆

ويدق الطبيب دقة رقيقة على باب غرفة المريضة ثم يدخل :

ــ كيف حالك الآن ؟

ــ أحسن . . .

ــ ان حرارتك عادية منذ أيام . وقد التأمت كل الجروح . وسنأمر بالافراج عندك بعد قليل . . .

ــ اشكرك . . .

هنا يلتفت الدكتور الى الممرضة فيصرفها بحجة لا تثير شكاً . . .

ــ فى غرفتى زائر غريب يريد أن يراك . . .

ــ زائر غريب ؟ !

ــ نعم شاب من سنى . يقول انه يعرفك كل المعرفة . وهو صديقي . وهو مريض . فهل تقبلين زيارته . وهل تعدينني بأن تحسنى استقباله ؟

وهنا تنتفض الفتاة وتجلس بحركة عصبية سريعة قائلة :

ــ هو ؟ ! . . .

ويلاحظ الدكتور هذا التطور المفاجىء فيزداد دهشة من هذه

الالغاز . ثم يلاحظ من ناحية أخرى أن الفتاة مضطربة مرتبكة فيخشى المسئولية ويجمد فى موقفه . . .

ـــ أنا لا أفهم شيئاً ولا أعلم شيئاً . ظننت أنى أقدم خدمة . فان لم يرق لك استقباله فلن يحضر ! . . .

الفتاة لا ترد . . .

والدموع المتساقطة لا تنبيء عن رفض أو عن قبول . . .

وتهذى الفتاة فتقول : لا لا ! لا أقابله . .

ثم تقبض على يد الدكتور وتقول : لا لا ! بل يحضر . . .

ثم تعود فتتوسل اليه ان ينتظر لحظة حتى تفكر وتبت . . .

ويطول امد الانتظار ثم تلقى الفتـــاة برأسها على الوسادة وقد ضعفت واستسلمت . وبصوت خافت تأذن بدخول الزائر الغريب . . .

☆ ☆ ☆

ويتسلل « شكرى » الى الغرفة تسلل اللص الشريف ذى العاطفة ويوصد الباب . . .

يتقدم خطوة ويتقهقر خطوة وهو لا يكاد يحفظ توازنه . . .

الفتاة تخفي وجهها وعينيها بيديها . . .

هو يلقي بنفسه على كرسى بجوار الفراش . . .

وتمر لحظة سكوت وارتباك . . .

وتخرج كلمة مكتومة ضعيفة متقطعة مهتزة هى : مريم . . .

ويرد الصدى : شكرى . . .

نعم : هما مريم وشكرى قد تقابلا أخيراً وتهاتفا بالاسمين. ثم ماذا ؟!

من يشرع منهما فى الحديث قبل الآخر ؟ . . .

ان مهمة الفتى أهون من مهمة الفتاة : عنده الامل . وعنده الحب . وعنده النبل . وعنده الواجب . وعنده الوفاء ! . . .

أما هى فماذا عندها ؟ !

عندها اليأس . وعندها الكارثة . وعندها المفاجآة التى تهد رواسى الجبال . والتى تسحق قلوب ذوى الحب وذوى الوفاء ! ...

ويتشجع الفتى الذي يجهل ما حدث ويطاوع قلبه فيحنو على صديقته يحاول أن يقبلها فى جبهتها فتحول بين شفتيه وبين الجبهة بشجاعة المرضى وذوى السقام . . .

هى محقة : إنها ليست له ولن تكون له . هى إما لزوجها . وإما للقبر . ولا ثالث ! ...

والمسكين لا يدرى . يظن أن الكارثة التى حلت بها القت فى روعها أن ترفض حبه وقلبه . فيعاود الكرة وتعاود هى الكرة . . .

ويأبى القدر الا أن يحسم الموقف فى هذه اللاحظة . فيدق الباب وتدخل ممرضة فيتقهقر « شكرى » بكرسيه خطوتين . . .

وتقول الممرضة : ان « زوجك » ياسيدتى يستفهم عن حالتك الآن بالتليفون . . .

فيصرخ « شكرى » هاتفاً : زوجك ؟ !

فتنسحب الممرضة ويخيم السكون . . .

. . . .

. . . .

ان المريضة الكريمة فهمت واجبها بسرعة البرق بعد هذه المفاجأة. انهـا رغم هزالها وضعفها تقفز من سريرها الى حيث يجلس الزائر الغريب . . .

وأين هو ؟

انه موجود . ولـكنه غائب ! ! !

هيكل من الهياكل البشرية بقى حيث وضعوه . لا يتحرك ولا يتنفس ولاينظر ولا يسمع . أو هو تمثال من التماثيل غير الناجحة لا يرمز الى جمال او فن أو معنى ، وانما هو قطعة من الجماد فى شكل انسان ! . .

والفتاة ؟

أتستغيث ؟ أتطلب النجدة ؟ لا . إنها تلجأ الى الكلونيا فتدلك بها وجهه ويديه بحنو وعطف وشفقة وكرم . . .

ثم تناديه من أعماق النفس المعذبة : شكرى !

ويجيب « شكرى » النداء فجأة . ثم يتماسك ويقف مجاهداً ثم يتقهقر خطوتين . وترتسم عليه أمارات الخجل القاسى والارتياع اللاذع والاحتشام الموجع . ثم ينبس بهذه الكلمات :

ـــ أعتذر يا سيدتى . اغتفرى لى جرأتى . لم أكن أعلم . . .

ثم يخفى وجهه بين يديه ويتقهقر نحو الباب . . .

ولـكن « مريم » لا تتردد . وبالصوت القـديم الخالى من الكلفة والمفعم بالعاطفة تأمره ان يبقى وأن يجلس . . .

هو يتردد . . . ولكنها تكرر الامر بلهجة أحزم فيستسلم

✡ ✡ ✡

ان الصدمة كانت قاسية على « شكرى » . لم يستطع أن يتكلف فى أول الامر وأن يتصنع . اتضح له الموقف بغتة وبسرعة فقلب خطته رأساً على عقب . ولكنه ألهم موقف الاعتذار والاحتشام فجاء ملابساً للاكتشاف مناسباً للطارىء المفاجىء متسقاً مع الواجب . . .

وبدأ يشعر أنه غريب . . .

ثم بدأ يشعر انه يرتكب جريمة أدبية ببقائه فى هذه الغرفة

ثم بدا له ان الموقف حرج . وان الوضع غير طبيعى . وان المركز دقيق . . .

و « مريم » النبيهة الذكية تلاحقه فى خواطره هذه فتقطع فترة الارتباك قائلة :

— هون عليك . نستطيع ان نتكلم طويلا . . .

ثم تروى له الحوادث التى مرت . أما نكبتها فتمر عليها مراً سريعاً بحركات عصبية سريعة ويساعدها « شكرى » بملامحه الحزينة وتوسلاته الرقيقة بأن تنتقل من موضوع الكارثة مخففاً لوعتها وألمها الدفين بعبارات المواساة البليغة خاتما جهده بقوله : هى ارادة القضاء والقدر وأنت مؤمنة فاخضعى ! . . .

وتنتقل مريم الى موضوع الزواج ومناظره السينمائية السريعة ولا تضن على الزوج الشهم رسول السماء بتقرير الواقع فيتأثر « شكرى » كل التأثر من رجولة غريمه ونبله وبطولته ، فيمد يده الى الفتاة ويصافحها وقد استعاد رجولته هو أيضاً ويقول :

« أهنئك من صميم قلبى . ان زوجك لرجل . وأؤكد لك يا مريم

انى شعرت الآن بشىء من سعادة النفس وراحة الضمير . . . »

قالت وقد أتمت ما بقى من أخبارها وأخبار مرضها : « انك لمخطىء. ان الشاب تحت تأثير الحادث الفاجع ثارت عواطفه فأقدم على عمل من أعمال الخيال . وعلى مجازفة من مجازفات الروايات . وعلى ضرب من ضروب البطولة التى نقرؤها فى أساطير الأولين . لم يخترنى كما يختار العريس عروسه . وانما كان الامر أمر دقائق . . . وانه لمغبون ! . . . »

ويحاول « شكرى » أن يعترض وأن يحتج وأن يناقش . فتنظر اليه نظرة حادة قاسية وتقول : « اسكت ! اسكت ! لا تغالط أيها التعس أنت أيضاً . . . جئت الى وأنت مريض منهوك القوى مضعضع الحواس لماذا ؟ ماذا بقي لى من صفات العذارى واحسرتاه ؟ ... ماذا فى من جاذبيات الفتيات وقد دمغت الدمغة التاريخية الخالدة . . . لا لا ! لا تغالط . . . جئت أنت أيضاً لتؤدى الواجب . لانك شاب نبيل . . . مصابكما — أنت وهو — انكما على خلق . أنتما تعطفان وتحسنان على منكودة .. »

وتبكى الفتاة بكاء مراً فلا يملك « شكرى » إلا أن يقبل يدها ويبكى هو أيضاً . . .

— أقسم يا مريم أنك مخطئة . اطردى تلك الهواجس واعلمى انك ضحية من ضحايا الثورة ، وفريسة من فرائس الامة المظلومة هيا . هيا انهضى فحولك تقديس . وحولك قلوب . . .

قالت وقد قبضت على يده بشدة وقسوة وضغط : « اسمع ! لن أكون له . ولن أكون لك . سيحظى بى القبر فهو عريسى وزوجى فهيا انصرف فى الحال وترحم على ! . . . »

وتلمع عينا شكرى لمعاناً غريباً ! . . .

إن هــذا التصريح الخطير لم يهزه ولم يفعل فعل الصواعق على الرءوس . .

انه صمــد وثبت . وبكل رزانة واتزان وتؤدة قال : أحسنت ! نعمت النهاية . . .

أخذت الفتاة بمظهره الهادىء . وراعهــا الرد الذى لم تكن تتوقعه . . .

ــ أمتهكم ؟ ! أم تظننى طفلة ؟ !

قال : « لا يا صديقتى . لا يتهكم الناس فى مثل هذه الحالات المظلمة الحزينة . أنا جاد لاهازل ! . . . »

والفتاة بالرغم من أن قرارها الجهنمى يصادف القبول تزداد دهشة . . . ثم تزداد جزعاً . إن « شكرى » لا تنم هيئته ، ولا لهجته ، ولا جملته ، عن استخفاف أو استنكار . . .

ونظر فى الساعة فوجدها الثامنة إلا ربعاً . . .

قال : أخشى أن أكون السبب فى تأخير عشائك . . .

قالت : ليكن ! . . .

قال : هل اخترت السلاح ؟ !

قالت : أى سلاح ؟

قال : سلاح الموت . . .

قالت : سأختار اسرعها وأحدها وأقساها . . .

قال : عندى أمنيتك . كنت أعددتها لنفسى وحدى إذا كنت

نجحت فى محاولاتك وسبقتنى الى هناك . . . أما الآن فيا لتصاريف القدر نستطيع أن نسافر معاً ! ! !

ويخرج من جيبه « الحاجة » التى وجدت مدسوسة دساً بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله . . .

وجحظت عينا الفتاة وتحفزت وتوثبت كالنمرة الثائرة وصاحت : شكرى ! ما هذا ؟ ! !

قال بثبات وتؤدة : هذا « استركنين » . سيد السموم وسهم المنيـة وعزرائيل العقاقير . يتناوله الكفار أمثالنا والجاحدون امثالنا والجبناء أمثالنا وأعداء الله أمثالنا فيرتعشون ويتقلصون ثم يموتون ! . . .

وتهجم الفتاة على الفتى وقد روعها لمعـان فى العينين أقوى من سابقه وأنفذ . فيردها بذراعه الحديدية ثم يقذف بغطاء الزجاجة ويدنيها من فمه قائلا :

ـــ الرجال أولا سـيدتى . وسأبقى لك نصيبك . إلى بكوب من الماء . . .

وإذ يدنى الزجاجة ذات المسحوق الى فمه تلطمه الفتاة لطمة جبارة تطير الزجاجة من يده فينتثر المسحوق الشرير على الارض . ثم تركع الفتاة وتبكى وتتوسل وتقبل قدميه مترنمة بأرق وأروع وارحم ما عرف عالم الاصوات :

شكرى ... شكرى ... لا نموت ... بل نعيش ! ! !

. . . .

. . . .

اذكريني !

ابتسم « شكرى » ابتسامة الظافر . وأخذ بيد الفتاة إلى فراشها برفق وحنان ثم نظر الى ساعته وساوره القلق إذ أخذ من وقتها أكثر مما يأخذه الزائر العادى . كذلك خطر له أنه أحرج صديقه الدكتور أكثر مما يجب . وخطر له أن هــذه الزيارة الطويلة قد تثير لغطاً فى المستشفى وإن كان على ثقة من ان صديقه قد دبر الامور كما يجب أن تدبر . . .

قال : والآن يا صديقى أو يا شقيقتى . قررت « ان نعيش » أليس كذلك ؟ ! . . .

قالت : نعم ، من الظلم أن تموت أنت . . . وسأعيش لتعيش !

قال : حسناً . أشكرك إذ أنقــذتنى لوالدى ولمستقبلى ولشبابى . ويالك من طفلة ؟ بل يالى من طفل أنا أيضاً ؟ لا يأس مع الحياة يامريم

ستعيشين وسيمحو المستقبل الزاهر ذكريات المــاضى الاسود والحاضر المعتم . ستكونين نعم الزوجة ثم تصبحين أماً . . . وأولادك سوف يطردون بوجوههم البريئة . وضحكاتهم الموسيقية . والفاظهم الاخاذة . اشباح الحوادث . وسيشغلك الزمن والواجب عن كل شىء إلا عن أمومتك . . .

قالت : ليفعل القدر ما يشاء . أنا بنت القدر ! . . .

قال : نحن جميعاً أبناء القدر . . .

قالت : بقى شىء ؟ . . .

قال : ما هو ؟ . .

قالت : ما بيني وبينك . . .

قال : كان ما بيني وبينك طهراً وسيظل إلى الخلود طهراً . كان ما بيني وبينك أوفى وأقدس وأعف ما بين فتاة وفتى . وسيبقى الى الأبد محتفظاً بقدسيته ، متحلياً بكرامته ، حياً بذكرياته ، متعشاً بعذريته ! . .

هو الحب « البلاتونى » يا مريم . حب الخيال والسماء والاحلام . حب الملائكة . حب النقاء والبقاء ! . .

« اتحزرين ما سوف يحدث ؟ يستحيل هذا الهوى العـذرى الى صداقة بالزمن . صداقة حلوة خفاقة فأتنسم عن بعد أخبارك وتتنسمين عن بعد أخبارى . أدعو لك وتدعين لى بالسعادة كلما انبثق نور الفجر ، أو ودع قرص الشمس نهار الجلبة والضوضاء والكفاح ، أو أرخى الليل سدوله على مخلوقات الله الذين يلجؤون إلى مخادعهم ومخابئهم فى حراسة القضاء والقدر ! . . .

« ثم لا بد أن نلتقى . وأفضل أن يكون اللقاء بعيداً . بعد إذ يخف وقع الصدمة ، وتبرد نار اللوعة ، وتخمد شعلة اللذعة . . . حينـذاك — ولا أدرى متى وأين — نذكر معاً عهد الشباب ، وحلاوة الشباب ، وأحداث الشباب ! . .

نعم : نعيش يا مريم ونعيش . والله كفيل بأن يشفيك ويشفينى من الفاجعة ! ! !

ويسكت « شكرى » منتظراً الرد فيجده دموعاً هادئة تتهادى على الوجنتين وتتلاحق بكبرياء وجلال . . .

قالت : أدنت لحظة الوداع ؟ !

قال : بل أوشكت أن تنتهى . . .

قالت : أعطنى قلماً . . .

فيخرج من جيبه قلماً « امريكانياً » وتمد هي يدها إلى الوسادة فتخرج من تحتها صورة لمريم الطالبة فى مدرسة الامريكان . ثم بيدها المرتعشة تخط على الصورة هذه الكلمات :

« الى خيالى النبيل . . . »

« مريم »

ويأتى دوره فى الاهداء فلا يجد شيئاً . ثم فجأة يصطدم بزجاجة « الاستركنين » الفارغة فيلتقطها من الارض ويقدمها لمريم قائلا :

ــ هذه هديتى أنا . احتفظى بها فقد كان سمها هو الترياق . وكان موتها هو الحياة !..

ويتناول الفتى يد الفتاة فيقبلها بخشوع وحرارة ، وتشترك دموعه المتساقطة فى الوداع فتترك أثراً على الجلد الرقيق ...

ويأتى دور الفتاة فلا تملك إلا أن تضع قبلتها مكان قبلته على يدها . ولا تملك الا أن تمزج دموعها بدموعه على الجلد الرقيق

ــ الوداع يامريم ! . .

ــ الوداع يا شكرى . . .

. . . .

. . . .

وتتبع وقع اقدامه خطوة خطوة حتى إذا ما ابتلعه المستقبل المجهول
دخلت الى الغرفة ممرضة تحمل ورقة صغيرة فيها كلمة . . .
أما الورقة فمنه واليها . .
وأما الكلمة فكانت :

« **أذكريني . . .** »

استشفاء!

لا أدرى تماماً هل تتفق أمزجة المفجوعين فى الحب. المقهورين فى عالم العواطف. اليائسين من تحقق الآمال الغرامية... لا أدرى هل تتفق أمزجتهم فى اختيار الملجأ والمنفى والملاذ بعد النكبة أم لكل مزاج، ولكل رأى؟...

أنا من الناس الذين يغمرون أنفسهم غمراً فى بحر الواجب والعمل عند الفشل فى الحب. فاذا ما حل آخر الأسبوع واستقبلت يوم الراحة وانقطعت صلتى بالعمل والواجب تحركت فى نفسى الذكريات واشتعلت فى قلبى النار واستولى على الألم...

ونقرأ فى الروايات وفى الاخبار العالمية العاطفية أن كثيرات وكثيرين من فرائس القلوب الخفاقة يسافرون ويستسلمون للوحدة وللعزلة إذ يجدون فى ذلك السلوان ...

ونقرأ أن كثيرات يلجأن للدير ويقطعن صلتهن بالدنيا الخلابة وبالانوار وبمسارح الفرح والحبور...

ونعرف أن كثيرين من هذا الصنف المنكوب يجدون العلاج فى الضجيج وفى العجيج وفى الجلبة والضوضاء وفى المجتمعات المنعشة والسهرات التى لا يديرها العقل وانما يتولاها الهوس...

الواقع أن الأمزجة تختلف وان الاستعدادات تتباين...

و «شكرى» بعد عودته الثانية من «اسيوط» يفكر ويفكر.

وأخيراً يقع اختياره بعد طول التفكير على « الريف » . . . تقبل

☆☆☆

هذا « محمود » العربجى ينتظر سيده « شكرى » على المحطة الريفية الصغيرة ذات الذكريات بالعربة القروية التى أنهكها الكر والفر وأضناها الذهاب والاياب فى استقبال الزائرين وتوصيل المسافرين . . . العربة التى ظلت زمناً طويلا رمز الكرم والجود ، والتى حملت فيما مضى زرافات ووحدانا من الادباء والـكبراء والوزراء والحكام أيام كانت الدنيا دنيا الكرم والجود . والوفاء والصفاء . وحسن الحال وصفاء البال . . .

ولمح « شكرى » أن الخيـــل تتعثر وتتخبط من الهزال والضعف والجوع فقال : ما هذا يا أوسطى محمود ؟

جرت من العربجى المسكين دمعة وقال فى صوت مخنوق : من عهد ان سكنتم مصر يا سيدى وكل شىء هنا جائع وعطشان . . .

قال شكرى : حتى الزرع يا محمود ؟ . . .

قال : حتى الرجال والنساء والاطفال . . .

وانحرفت العربة تحاول أن تتخطى المزلقان المرتفع عن السكة الزراعية فتعثرت الخيل وتخبطت وتقهقرت العربة تكاد تهوى برا كبها فى الترعة فضرب « شكرى » كفاً على كف قائلا : واحسرتاه ! . . .

هــذه طلائع الريف المهجور . الريف الذى كان زاهياً زاهراً موسراً مملوءاً بالروح وبالحياة مفعما بالخيرات والبركات ؟ الريف مصدر المجد ومورد الرزق ومنبع النعيم المقيم ؟ الريف دعامة الثروة ومنبت المجد العتيق ، والصديق الوفى والرفيق الذى لا يغدر ولا يخون ؟ الريف

الفاضل عدو الرذيلة وكفيل الجمال والكمال ؟ هذا هو الريف قد خيم عليه الغيم المعتم وانتشرت فوق أرجائه الكآبة التى تسحق القلوب ! . . .

ووصلت العربة الى القرية . وواحسرتاه مرة أخرى ! هذه هى التلال قد زادت تلالا . وهذه هى البرك تضاعفت بركا . وهؤلاء هم الاطفال العراة كما نزلوا من بطون أمهاتهم لا يرتدون شيئاً لان « هدمتهم » الوحيدة . . . الوحيدة صيفاً وشتاء فى « الغسيل ! ! . . . »

ويظل الطفل بجسمه العارى العليل طول النهار حتى تغسل « الهدمة » وتنشف فيرتديها على اللحم ! . . . يرتديها على اللحم بعد ان تكون قد فعلت الاهوية والرياح والعفار والميكروبات فعلها فى صدره وبطنه وسيقانه ؟ ! . . .

ويصل « شكرى » الى بيت الاسرة الحافل بالذكريات فتفد اليه وفود الرجال والنســاء من القرية . أما الرجال فلينتظروا قليلا فى « السلاملك » وليشربوا القهوة حتى ينتهى من استقبال الزائرات . . .

المتطوعون ؟ !

هذه « أم رجب » التى عرفها ضحوكا ثرثارة حاضرة البــديهة سريعة النكتة زاخرة بالامثال ما بالها قــد تغيرت وهرمت وتجللت بالسواد ؟ ! لك العزاء يا مسكينة . . . ابنها الوحيد قد غيبته صحارى فلسطين فكان ضحية من ضحايا السلطة ! ! !

وهذه « أم الخير » مثلها وانما فقدت اثنين ؟ !

وهذه « أم نعمة » مثلها وانما فقدت ثلاثة ؟ !

حسناً ، حسناً : يا ولايا يا ثكالى لا تبتئسن ولا تحزن فنى سبيل الوطن ذهبت فلذات الا كباد ؟!!...

فى سبيل الوطن ؟!...

نعم ! ولم لا ؟! هكذا قال أقطابنا وزعماؤنا وساستنا وإلا فكيف رضيت ضمائرهم المصرية . وكيف قبلت قلوبهم الوطنية . وكيف سمحت عقولهم الشرقية . أن تسوق ذلك الجيش العرمرم من العراة الحفاة كقطيع الغنم ضد الاتراك ومع الانكليز الى الحدود والى ما بعد الحدود حيث ضحوا المهج فى وهج الشمس وظلام الليل وفى الاغوار والانجاد والهضاب والجبال ؟!

فى سبيل الوطن لاشك !؟ فلما نال الوطن النصر وتقهقر العدو وفرضت الشروط على من خسر الحرب قاسية حامية قاصمة قاضية : قبض الوطن الثمن ونال الجزاء ؟!!

قبض الثمن ذلا على ذل . وعاراً على عار . واستعباداً على استعباد . وفقراً على فقر !...

وبقى فى البلد الاحتلال . رمزاً خالداً للاستقلال !...

الفلاح !

— وانت يا « سليمة » كيف حال ابنـــك « طلب » ؟ اليوم يوم الاربعاء . هل أحضرت له شيئا من السوق ؟

قالت « سليمة » وقد سرتها هذه المداعبة انها أحضرت له حلاوة حمصية و « حتتين قته » ...

قال : « ألم تحضرى له لحمة ؟ »

قالت : « لحمه ؟ ! بنجيبها سوق وسوق لأ ! . . . »

وأمن الفلاحات الزائرات على كلامها . يأكل الفلاحون اللحم فى الشهر مرتين . واللحم فى عرفهم شىء من العظام و « الشغت » . يشترونه بأرخص الأثمان من لحم الجاموس أو البقر أو الماعز الذى تدركه وتنقذه السكين من آلام الاحتضار . . . وقد يخدعهم الجزارون الغلاظ القلوب والاكباد فيبيعونهم اللحم من « الفطيس » . اللحم الفاسد الذى يحمل الى جوفهم الامراض والأوبئة . . . أما طعامهم بقية أيام الشهر فالعيش الذرة الحاف مع قليل من الملح . وقليل من البصل . وقليل من الفجل والجرجير والمش . وقليل من الخضار المطبوخ لا بالسمن ولا بالزبد ولا بالزيت وانما . . . بالماء ! ! !

وثروة الفلاح فى الريف أولاد وماشية . أما الأولاد فسائل « الشمس » : هل استطاعت يوماً أن تنفذ بأشعتها الى داخل الدور المبنية من الطين والطوب « النيىء » والتى أبى فن مهندسيها ومقاوليها أن يجعل فى جدرانها منافذ لدخول الشعاع الربانى المطهر ؟ وسائل « الهواء » : هل كان أوسع من الشمس حيلة فاستطاع أن يتسلل ولو كاللص الى هذه القلاع الحقيرة المحصنة ؟

ثم سل سكان هذه الدور : هل يفصل بينهم وبين البهائم وروث البهائم فاصل ؟

هل تمتاز الزريبة عن الحصير والمصطبة والقاعة والدهليز أم الكل سواء فى الاثاث وفى الرياش ؟ !

ثم سائل الانكلستوما والبلهارسيا وغيرهما وغيرهما : ماذا فعلت فى الفلاح وابن الفلاح وبنت الفلاح ؟

سل العزب والكفور : أين ذهب الرجال والفتيان وما الذى حصدهم حصداً حتى أقفرت الدور إلا من الارامل والثكالى ؟ !

أما « الماشية » فحدثيني يا أم نعمة : أين ذهب جمل عم « حسن أبو متولى » وطوره وبقره وجاموسه وحماره الحصاوى وماعزه وخرافه ... وأين ذهب جمل عم « سليمان القطاوى » وطوره وبقره وجاموسه وحماره الحصاوى وماعزه وخرافه . . . وأين ذهبت ماشية عم « ابراهيم أبو رمضان » وعم « حسين زقندح » وغيرهم وغيرهم من اعيان المزارعين خبراء الغيط وأقطاب الزرع فى القرية ؟ ! ...

— راح الخير يا سيدى . .

ذهب الخير وولى ، وأقفرت مخازن الذرة والقمح فى بيوت الفلاحين البسطاء . فاذا ما بحثت عن السبب وجدته هو السبب دائماً . هاجر الاسياد الى العواصم وأجروا الضياع لفلاحيهم . وهؤلاء فقراء لا يملكون ثمن السماد وثمن التقاوى وأجرة الرى وغيرها وغيرها من النفقات والتكاليف . وتأخروا بسبب العجز المالى عن السداد فترا كم الدين للسيد على المسود . والسيد فى القاهرة أو فى البندر يريد نقوداً تسد نفقات تفرنجه وتعصره ورفاهية المدنية . فهو لا يرحم لأنه هو أيضاً محتاج . والغيط المسكين يتحمل فى هذه الحالة اهمال الفلاح وجشع المالك . والفلاح تحت ضغط السداد يبيع ما يملك من ماشية . فاذا ما تجرد عنها تجرد عن سلاحه ففشل كرجل خبير فى الزراعة فنان . . .

هذه هى الناحية المادية التى كانت نتيجة حتمية من نتائج التطور الريفى : ان ينقلب الزارع بيده من عامل الى مستأجر

أما الناحية المادية فأدهى وأمر وأنكى . شعر الفلاح بنوع من الكبرياء والغرور إذ أصبح جديراً بالتعاقد مع سيده بعد ان كان رجلا من رجاله يأتمر بأمره وينتهى بنهيه . وهذا النوع من التحرر والرقى رفع نوعاً مستوى معيشته فلم يدم الارتفاع طويلا . فهوى !

هوى الاعيان وهوى الفلاحون ونضب معين الخير وضاقت الارزاق . وجاءت الحركة السياسية فكان لها ضاع من سنة ١٩١٩ حتى كتابة هذه السطور . . .

شغلت السياسة ولاة الامور بالتتابع من ذلك التاريخ حتى هذا التاريخ . فخدم ولاة الامور « الحزبية » أكثر مما خدموا الامة من الناحية الزراعية والاقتصادية . فاختل التوازن بين الايراد والمنصرف . وأصبحت دعوى ان « مصر غنية » اكذوبة من الاكاذيب الفاضحة ومغالطة من المغالطات الدائمة !

إذن صدقت « أم نعمة » إذ قالت :

« راح الخير يا سيدى . . . »

وارتفع القطن فى سنة ١٩١٩ فوصل سعر القنطار الى اربعين جنيهاً وأكثر من اربعين . . .

ثم جاءت سنة ٩٢٠ و ٩٢١ و ٩٢٢ وما بعدها وبدأ سعر القطن يهبط ويهبط ويهبط . ثم يهبط ويهبط الى مستوى الفقر المدقع المتجسم فى الاشباح التى أمامه : وجوه صفر عليلة ، خلق بالية ، عظام تكاد

تكسو اللحم ولايكسوها اللحم . . . اذن ماذا استفاد الفلاحون البائسون من ارتفاع الاسعار ذلك الارتفاع الجنونى الخيالى الغريب ؟ !

لا شىء . . .

الفلاح الصغير دائما هو الفلاح الصغير . سنة اليسر وسنة العسر عنده سيان . وغريبة هـذه المشاهدة فى بلادنا المسكينة . والفلاح المصرى هو فلاح العالم الوحيد الذى لا يتأثر بالأزمة ولا يتأثر بالنعمة . وعندما أقول الفلاح ارجو ان يفهم قرائى بأننى أقصد تلك الطبقـة الحافية العارية المريضة التى حافظت فى ماضيها وحاضرها على تقاليدها القديمة وهى الجلد والصبر والعمل فكانت دائما مصدر الرزق ولـكن بلا مقابل ! . . .

☆☆☆

وخرج « شكرى » الى السلاملك فقابل الرجال . وأخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمه التى مرت بهم فى عهد شراء الجمال والحمير والبغال والذرة والشعير وفى عهد سوق الاولاد للعمل فى فلسطين . . .

ثم أخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمة بعد « الثورة » فى عهد التحقيقات والاحكام وعهد التشنق والانتقام ! . . .

ثم أخـذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمة الخاصـة بالارزاق والاقوات

ثم أخذ يستمع الى ذكريات عهد البر والوفاء بين السادة وبين المسودين . . .

ثم خلص الى نتيجة اشتراكية بحتة ، وهى ان هذا الصنف من الآدميين صنف مجحود يقاسى شر أنواع نكران الجميل ! . . .

☆☆☆

وأخذ يستشفى فتانا فى الريف فلم يطق البقاء طويلا وانما أخذ يعالج جروح قلبه بالحياة الهادئة . وبالوسط الجاهل الساذج . وبالخضرة المنبسطة . وبالنوم المبكر وبحياة الخمول والذكريات . . .

ثم عاد الى القاهرة ليحيا حياة جديدة : حياة المحاماة من جديد وحياة السياسة . وليته لم يحيها . . .

وبجانب هاتين الحياتين انتحر — أو قل صمم على الانتحار — فى حياة الحب والغرام . . .

. . . .

. . . .

اضحك يضحك لك العالم !...

فعل الريف فعله فى نفس « شكرى » وفى نفسيته . . .

وفعلت المأساة الاولى والثانية فعل الريف . . .

وخلع المحامي الناشيء المنظار الاسود عن عينيه . وصمم ان يعيش فيلسوفا وفيلسوفا مرحاً طروباً مستهتراً بالحياة مطبقاً المثل العالمى المشهور :

« اضحك يضحك لك العالم ! »

وها هو قد عاد الى القاهرة . وبرز فى نواديها وأحزابها وقهواتها ، وسهراتها ومجتمعاتها . فكان واسطة العقد . و « سنترال » الحظ والانس والمجون الطيب البرىء . . .

ولـكنه فى مجونه ومباذله وهذره وهذيانه كان يبدو كالمجنون المتكلف المتطبع . كان يكافح فى داخلية نفسه آلامه . ويعارك ذكرياته الحزينة ويناضل لطماته السابقة . ويحاول ان يشفى جروحه الدامية . . .

وظهر على جمهور القراء المصريين بمقال تحت هـذا العنوان : « اضحك يضحك لك العالم » . فاوصى اهله وأصدقاءه بأنه إذا مات فعليهم ان يجللوا نعشه بالزهور البيضاء والحمراء — وان يلبسوا الملابس الزاهية الالوان — وأن يرقصوا ويمرحوا ويطربوا ويشربوا على صحته فى ليلة المأتم الاولى ! . . .

صدق الشاب وصدقت نظرته الى الحياة . انى إذ أدون وقائع حاله الآن — أى فى سنة ١٩٣٢ — أستعرض فى ذاكرتى عزيزاتى وأعزائى

الذين ذهبوا ... وأفذاذ العالم الذين هووا الى الحضيض فى أوج عزتهم وسؤددهم ومجدهم ... وكيف خلق القدر خاملين فجعل منهم نابهين وكيف غدر بالنابهين فجعلهم خاملين ... انى إذ أذكر ذلك وأستعرضه أجد ألا قاعدة فى هــذه الدنيا . وان من واجب المفكر الرزين ان يكون « قدريا » على طول الخط . عدواً للمطامع والآمال . يكافح ولــكن بلا شجن ولا ألم . ويسعى ولــكن بلا عذاب : يكد ويقدح زناد الفكر ولا يكل ولا يمل ولــكن تحت شرط : ان ينام فى الليل ملء جفونه وان لايقول : آه ...

تلك الفتاة التى كانت تتربع على عروش جميع القلوب . وكانت حديث الشبان فى السهرات . وكانت مطمع عشرات من الخطاب . فجأة تسعل سعالا خفيفاً . ثم تشحب . ثم تذوب . ثم تنتهى ... ماتت بالصدر وبالعلة الخبيثة . لم اختطفها القدر ولم يرحم شبابها وجمالها وكمالها ؟ ولم يرحم عواطف الذين اشتروا هناءهم من الدنيا بها . ولم يرحم اجماع الناس على حبها ؟ لم تموت ؟ ! لا أدرى ... وإنما شاء القدر . فابكوا وأذرفوا الدمع السخين يا سخفاء ! ...

وذلك الشاب المتألق فى نوادى القاهرة الصاعد بسرعة البرق الى العلاء . المحمود الخصال والخلال . المدير لادارة حكومية كانت مثالا فى الدقة والاحكام والنظام يفكر فى الزواج ويختار خطيبته من أكرم البيوت وأجمل الفتيات . ويمرح بها وبسيارته فى المساء الجميل يتبادلان أرق العواطف ويدبران حديقة المستقبل الغناء . هذا الشاب يملىء بيته المعد « للدخلة » بعــد ثلاثة أيام بأثاث العروس القاخر وقد ازدحم

باخوانه وأقاربه يتفرجون ويهنئون حتى اذا انصرفوا ذهب الى القهوة وطلب فنجاناً . ثم ارتفق بذراعه ووضع أنامله على جبهته يفكر فى تنميق غرفة الاستقبال واعداد الحمام وتهيئة غرفة الطعام ثم يسرح فى خيال الاحلام . ويأتى «الجرسون» بفنجان القهوة ويداعبه فلا يرد . . . ويحركه فلا يتحرك . . . ويضع يده على قلبه فيجده قد مات ! ! !

وهذا الشاب الذى نشأ فى وسط تجارى . فلما هيأت له كفاءته أن يتولى المنصب الذى يساير نبوغه ويتمشى وجدارته نثر نشاطه الحكيم المتئد ذات اليمين وذات الشمال فأثمر وأنتج وا كتسح وأباد وزحف الى المشروعات الوطنية الاقتصادية زحف الجيش الجرار الكامل العدة القوى السلاح . حتى اذا دوى اسمه دويه ، وطار فى الوطن كل مطار . ألهب فجأة رأسه برصاص المسدس فسقط جثة هامدة بين ذراعى زوجته وعلى مرأى من طفليه بغير سبب معقول ؟ !

وهذا . . . وهـذا . . . وذاك . . . وذاك . . . والصرعى فى الطريق . وفى القطار . وعلى مكاتب الدواوين . وفى القهوات والنوادى من هؤلاء ؟

هؤلاء هم ضحايا القدر بغير سابق انذار . اذن لا تساوى الدنيا شيئاً . فعلام الهم والغم والحزن والشجن . وعلام الآهات والانات والحسرات . وعلام الارق فى الليل والكدر فى النهار ؟ . اذن الى الوراء يا مشاغل الدنيا والى الوراء يا مطامع ويا مظاهر . ويا آمال ويا أمنيات . وأهلا بك يا قدر . ان « شكرى » يستقبلك مستسلماً ويؤسس فلسفته الجديدة على قاعدة : « اضحك يضحك لك العالم ! »

مشاريع الزواج!...

يلاحظ الأبوان الكريمان على ولدهما الثالث أنه يتخبط. فمن حزن قاتل. الى داء عضال. الى ضحكات جنونية. الى مرح مفاجيء. الى انغمار فى السياسة على غير هدى وعلى غير أساس...

ثم ها هو يندفع فى تيار التحرير السياسى المتطرف الملتهب المشتعل ناراً... وها هى رسالاته تظهر فى اكبر الجرائد اليومية الصباحية بأسلوب فاز بحسن الحظ وبالحظوى ووقع من النفوس موقع الهوى والسلوى. وامتزجت فيه الفكاهة بالجد. والسكر بالحنظل. ويظهر أن سر نجاح ذلك النوع من الاساليب الكتابية يرجع الى أن النفوس كانت ولا تزال مفعمة بآلام الحياة وبأكدارها ورزاياها فهى جد تواقة الى القراءة المرفهة المعزية المواسية، المرسلة ارسالا لا اتقان فيه ولا صنعة ما دامت تخضع لوحى الطبيعة والسليقة لا وحى التكلف والتعمل. وداعب الكاتب فيمن داعب جنس النساء والفتيات!

ولاحظت «الام» اليقظة أن فتاها يفتح على شبابه فتحاً جديداً وأنه أوشك أن يندفع فى تيار الاغراء فصاحت: الزواج! الزواج!

☆☆☆

وقعت الصيحة من نفسه موقعاً حسناً فصاح هو أيضاً: الزواج الزواج!..

واشتغل قلم المباحث والتحريات وكانت للأم اقتراحات. وللعمات اقتراحات. وللخالة اقتراحات. وللاخت اقتراحات. وكم كانت

الاذواق متنافرة . والآراء متباينة حتى سئم الخلاف فقال لهن : استرحن واتركنني أختار . . .

الخطيبة نمرة «١»

تلميذة على وشك التخرج لا تزيد سنها على ستة عشر عاماً . عرفها فى ليلة ساهرة بمنزل أسرتها . وكانت سهرة مختلطة اجتمع فيها رجال ونساء

ولفت نظره أنها كانت لا تلتفت الا اليه . ولا تعنى الا به . ولعله كان أصغر الموجودين وكانت هي أصغر الموجودات . والسن تجذب اليها السن ولو مع التفاوت فيه

ولاحظ بعض المدعوين انه ، وهي ، يختلسان النظرات فسلط دعاباته عليهما . وكانت الفتاة تنتعش بالدعابة . وتلذ لها الملاحظة . فتشجع !

وكانت فتاة جمالها كله ينحصر فى تعبير واحد : رقيقة !

كانت نحيلة ، دقيقة ، سمراء ، ذات فم أنيق وأسنان صغيرة فتانة.. ذات عينين لا تستطيع ان تحدق فيهما طويلا . ولكن مالنا ولكل هذا الوصف وهو لم يستهوه منها جمال اللون ، ولا جمال القد ، ولا جمال الفم والعينين ، وانما لعب بلبه أنها كانت لا تنطق حرف « الراء » كما ينطق الناس حرف « الراء » ! ؟

« راء » شاذة لا هي بالراء الواضحة ولا هي « بالغين » المدغومة . وانما نصفها من هنا ونصفها من هناك ؟ !

لا أظن مصدرها لثة الاسنان الخلفية وانما يغلب أنها تصدر بعد طى طرف اللسان من الحلق . .

ونحت الفتاة الصغيرة أنها لمست بأناملها قلبه . فزادته عناية ورعاية وأخذت ــ كربة منزل صغيرة ــ تعنى بطلباته أثناء السهرة . .

وفى غفلة بريئة من المدعوين اختلى بها بجوار « البيانو » فاخذت تحادثه بحديث فيه الساذج ، والماكر ، ولكنه كله خلاب . .

وتوسل اليها أن تضرب على البيانو وان تسمعه شيئاً فتمنعت تمنع الاطفال . ثم رضخت رضوخ الاطفال ثم لعبت لعب الاطفال ...

☆☆☆

تكررت الزيارات وزالت الكلفة وعرف سكان المنزل ، وأصدقاء المنزل ، أن علاقة « الحب » نمت بين الاثنين . وأنها تتجه بسرعة نحو الخطبة . ونحو الزواج . . .

وبدأ يدرس الفتاة دراسة الزوجة لا دراسة العاطفة فوجد أن الفارق كبير بين أسرته وتقاليده القديمة الرجعية . وبين أسرتها المتحررة العصرية . والفتاة كانت صغيرة فى السن وكان النزق والطيش الصبيانى صفتين لاصقتين بأحوالها وتصرفاتها . كانت فى « السينما » متلاحقة الملاحظات على الشبان وملابسهم وأحوالهم . فهذا فى نظرها جميل . . . وهذا رشيق . . . وذاك ثقيل الدم . . . وذلك وجيه !

وكانت مشغوفة بالرقص يكاد يبكيها وينغص عيشها ان « شكرى » لا يرقص . وكم توسلت اليه وألحت عليه ان يتعلم ليكون شاباً من آخر طراز . . .

وكانت من غواة قيادة السيارات . وكم وبخته توبيخاً ممزوجاً بالألم وبالكدر لأنه متأخر : فهو لا يلعب البيانو ولا يرقص ، ولا يقود السيارات . وانها تود ان تخلق منه فى أقرب فرصة شاباً من النوع المعروف : « سبورت » ! . . .

وجد « شكرى » ان الفرق عظيم بين عقليته وعقلية خطيبته . وان الدراسة التى تتجه يومياً نحو « الاعماق » تكشف عن خيبة الامل رويدا ؟ !

ولاحظ فى احدى السهرات ان زائراً جديداً قد طرأ على الوسط : شاب أنيق من سن الفتاة . وممن يرتدون « الجاكته الكحلية » ذات الازرار المذهبة . والبنطلون الواسع المتصل باسفل الكعب . ومن حملة « الكرافتات » ذات اللون « القوس قزحى » . ومن ذوى الشعر المكوى . وباختصار ممن يصح أن نطلق عليهم لقب « الجنس نصف ــ اللطيف » . . .

ورقص هذا الشاب معها فى احدى الليالى الساهرة فنظر اليهما وعيناه تقدحان بالشرر . ولكنهما والحق يقال كانا منسجمين متكافئين فى الرشاقة والاناقة والسن والعقلية والمؤهلات ؟ ! . . .

بدأ نجمه يأفل ونجم هذا يرتفع . وفى ليلة من الليالى انعطف « شكرى » فى شارع الاسرة فى زيارة من زياراته . فلمح سيارة « سبورت » من ذات المقعدين تقف بكياسة ولباقة على الباب ثم لمح الفتاة والفتى قد نزلا منها بكياسة ولباقة وقد تأبط ذراعها وتأبطت ذراعه بشغف وحنان وعاطفة . فقال فى نفسه : وداعا . والى الوراء ! ! !

ودق جرس التلفون فى اليوم التالى فى الميعاد فأخذ السماعة ودارت المحادثة الآتية :

هو : آلو . مين ؟

هي : أنا . . .

هو : كيف حالك ؟ . .

هي : عال . . .

هو : اهنئك . . .

هي : بماذا ؟

هو : به . . . . .

هي : من ؟

هو : الرشيق أل « سبورت » . . . .

ألقت السماعة بغضب . وفى الليل ذهب « شكرى » الى أحد التياترات ليتناسى همه ، فوجد الاسرة فى أحد البناوير . ولمح الفتاة « السبورت » والفتى « السبورت » متلاصقين فاقتحم الباب وسلم بأدب وابتسام . ثم همس فى اذنها قائلا : « اهنئك » . . .

فأطرقت وقد كسا وجهها احمرار خفيف . ولم تمض شهور حتى تزوج الفتى من الفتاة . . . .

فتنهد قائلا : بالرفاه والبنين ! . . .

الخطيبة نمرة «٢»

نحن الآن فى سنة ١٩٢٣ وقد استقل « الاستاذ شكرى » بمكتب فى مدينة من عواصم الاقاليم . وقد اشتغل محامياً موفقاً من البارزين الذين يحق لهم الجلوس مع سعادة المدير . وسعادة الوكيل . وسعادة

الحكمدار . وبزغ نجمه فى سماء الكتابة فتلهف القراء بحق أو بغير حق على رسائله فى الجرائد . وبالرغم من اقامته بالمدينة التى اتخذها موطناً لحرفته فانه كان وثيق الاتصال اسبوعياً بالقاهرة

وقرأ فى هذه الاثناء رسالة اجتماعية دقيقة البحث عن الزواج فى مجلة اسبوعية افرنجية ، ذهب فيها الكاتب الذائع الصيت الى ان الزواج المؤسس على « الحب » زواج « الفشل » فيه غالب . وان الزوجية المبنية على تقدير الجديات أجدى على الزوجين وأبقى من المبنية على العواطف والخيال . وهو فوق ذلك قد جرب الحب العفيف فى مأساته الثانية والحب الذى يظنه الناس غير عفيف فى مأساته الاولى . ثم اتعظ من فشل خطبته الاولى فصمم على ان يتزوج كما تزوج آباؤه واجداده من قبل . . .

وبعث بخاطبته « « أم هناوه » كالكشافة فى ميادين القتال .. ويا لها من سخافة ! لقد جاءته باخبار وأوصاف وتفاصيل وأرقام الله وحده أعلم بصحتها ودقتها . ثم فهم ضمنا من كلامها أنها انبأتهم باخبار واوصاف وتفاصيل وأرقام الله ، وهو ، العالمان بصحتها ودقتها . وأعجب ما فى الموضوع انها طلبت « صورته الفوتوغرافية » ! فحمد الله ولجأ الى صديقه « هزلمان » فخلق منه — فوتوغرافيا — خلقة وسيمة خلابة فتانة وبارك الله فى فعل « الرتوش » ومهارة الفنان . . وكان لا بد للاستاذ المثقف المتهكم على كل شيء من ان يخضع خضوع المستسلمين لهذه الاجراءات وهذه التقاليد . وقيل إن سفيرة أو سفيرتين من اهله المقربين يجب أن تذهبا لزيارة اهل الفتاة . ولمعاينة الفتاة . وعجيب — فى نظره — ان

يستلزم الامر هـذا ومستخدمو « سمعان » و « شيكوريل » يعاينون بدون سفيرة أوسفيرتين . ويشاهدون وليس عندهم إلا نية البيع والشراء والمساومة و « الفصال » . . .

وسأل الاستاذ : يا للخجل ! ؟ وكيف تتم هذه المعاينة ؟ . .

قالت خالته الفصيحة : نخطر اهل العروس بالزيارة . . .

قال : ثم ماذا ؟

قالت : نحدد الميعاد فتستعد العروس وتنظم نفسها وجمالها وقوامها وترتدى ابدع ثيابها وتعطر جسمها وشعرها بالروائح . حتى اذا وصلنا وشربنا القهوة أو الشربات استدعيت العروس فاقبلت تتهادى خجولا وجلست بأدب واحتشام ثم يأتى دور البحث والفحص . . .

قال : وكيف ؟ !

قالت : هنا اللباقة والمهارة . فالواحدة المجربة تشرع فى الحديث معها وتحدق أثناء الحديث فى « اسنانها » لترى ان كانت فيهـا عيوب أو كسور من ناحية التناسق واللون . ومن الحديث نستنتج « خفة الروح » أو « ثقل الدم » . ونعرف نوع « الصوت » ان كان ناعماً أو خشناً أو غليظاً . . .

قال : ثم ماذا ؟

قالت : . . . وقد تخرج الواحدة منا « سيكارتهـا » وتطلب الى العروس برفق أن تشعل عود الكبريت فتتقدم لتلمح قوامهـا وقدها وتقترب . فنتشاغل لتشعل عوداً آخر ولتتسع لنـا الفرصة لنحدق فى عينيها عن قرب ، ثم تنتهز السفيرة الاخرى هذا الوضع « فتطبطب »

على صدرها لتلمس « ثدييها » ببراعة واحكام . . .

قال : كفى !

قالت : ماذا ؟ . . .

قال : يا للخجل ! وأى فرق بينكن وبين « سماسرة » الخيول . وغواة الخيول ؟ أنتن بهـذا الشكل لا تخطبن فتاة وانما تشترين حصاناً ! . . .

وكان لا بد من هـذه السفارة فتوسل الاستاذ الى سفيراته ان يترفقن بالفتاة المسكينة فوعدنه خيراً . . .

ولا يعرف الاستاذ ماذا تم فى هذه المعاينة وانما تقدمت اليه تقارير متناقضة . فالسفيرة « نمرة ١ » ترى انها « بضلة » . والسفيرة « نمرة ٢ » ترى انها « كاملة » . والسفيرة « نمرة ٣ » ترى انها لا بأس بها . . .

وجاء دور « التحريات » عن الاستاذ وعن ماليته ، وعن سيره وسلوكه ، وعن عـدد اخوته ، وعن . . . وعن . . . وأفكه ما فى الموضوع انهم سألوا عنه « مأمور قسم شبرا » واعلهم استعانوا بالبوليس السرى عن احواله واسراره . . . واستغرقت هذه التحريات أشهراً ثلاثة . ثم صـدر القرار أخيراً بالقبول مبدئياً وجاء دور الـكلام عن « المهر » و « الشبكة » وليس المجـال مجال التفصيل فسخافاته ومهازله معروفة . وفرضت اسرة العروس رقماً عالياً فقبله الاستاذ راضخاً . ولم يكن فى حياته الحاضرة ولا المقبلة من الماديين . وكانت اتعاب القضايا فى سنتى (٢١ و٢٢) تتدفق على جيبه فلم يكن رقم « المهر » أو « الشبكة » من العقبات ! . . .

وسمح للخطيب أن يتردد على منزل الاسرة الضخم فى القاهرة ، وان يقابل رب الاسرة العظيم وزوجته العظيمة . وكانت زوجته عظيمة حقاً ؟ بل متألهة ! . . .

وأوعزوا اليه ان يقدم « الدبلة » فقدمهـا باجراءات ومراسيم ورسميات . وحين جاء دور العمل الحاسم وقد استعد له وتم الاتفاق على كل التفاصيل من « كتب كتـاب » و « ليلة دخلة » و « فرح » استدعته الزوجة العظيمة أو الام العظيمة لمقابلة خاصـة فاسرع اليها فهمست فى اذنه سائلة : أينْ تكون الدخلة ؟

قال : كما تأمرين . . .

قالت : اعنى اين تكون الاقامة ؟

قال : فى بلدى التى اشتغل فيها . حيث حرفتى وعملائى ورزقى !

قالت : لا . لا . بنتى لا تعيش إلا فى مصر !

قال : عفوك يا سيدتى . أتعيش وحدها وأعيش وحدى ؟ !

قالت : لا . ولكن تنتقل الى مصر !

قال : سيدتى . ان هذا مستحيل !

قالت : ونحن أيضاً مستحيل . . .

ودخل رب الاسرة الفخم فى هذه اللحظة . فتضرع اليه الاستاذ متوسلا و « استأنف » أمام عظمته « قرار » الزوجة العظيمة فصدر نطقه الكريم « بالتأييد » ! ! !

وانسدل الستار على الخطبة الثانية . . .

الخطيبة نمرة «٣»

فى يوم من الايام تلقى الاستاذ «شكرى» خطابا باللغة الفرنسية من فتاة لا تتجاوز الثامنة عشرة . مثقفة متعلمة كما يبدو من روح تحريرها وكما تذكر فى خطابها ، والخطاب يتضمن شكوى مرة من معيشتها فى منزل الاسرة . ومما تلقاه من الالم النفسانى بسبب اصطدام التربية العصرية بالتقاليد القديمة . ووقعت الفتاة بتوقيع مستعار . غير أنها ذكرت العنوان . ومن الصدف العجيبة أنه عرف العنوان وعرف المنزل لاول وهلة وعرف الفتاة . ولكنه لم يشأ ان يتعدى حده . فرد رداً موجزاً يتفق وتربيته ومكانة الفتاة وأسرتها ، واعداً بكتابة بحث طويل فى مجلة معروفة لتستفيد الفتاة من رده الذى سوف ينشر فى المجلة الشهرية . وكان الخطاب والرد ــ على هذا الشكل ــ عبارة عن مراسلة ادبية اجتماعية لا تدل على شىء ولا تنبىء عن شىء . . .

وظهر البحث الطويل فى المجلة وقرأته الفتاة الراقية . فرأت من واجبها ان تشكره على نصائحه وارشاداته واتصلت به تليفونياً . وبالرغم من عصريتها وثقافتها وتمدينها كلمته بصوت مضطرب ، ولكنها فهمت من حديثه أنه عرفها وانه يعرف اسرتها وانه يحمل لها كل احترام واجلال وانتهت المخابرة التليفونية !

وعن للفتاة فى ظرف آخر ان تكلفه ببحث آخر فكلمته بالتليفون مرة أخرى وأجابها الى رغبتها ونشر البحث الآخر ، فرأت أن تشكره فكلمته مرة ثالثة ورابعة وخامسة . . .

كانت الفتاة كما ترى مثقفة تثقيفاً عالياً . ثم هي فوق ذلك كانت موسرة ومن بيت كبير . وقد تحرى الاستاذ — من باب الفضول — فعلم انها جميلة . ومن محادثاته معها تحقق لديه أنها ثابتة فى خلقها . فلم يبدر منها لفظ ، ولم تخرج كلمة ، ولم تفلت جملة ، يمكن ان يستنتج منهـا أنها من ذوات النزق أو الطيش أو التسامح فى القواعد الاخلاقية التى تزين الفتاة . . .

أحب فيها هـذا التحفظ وهذا الاتزان على صغر السن وصغر التجربة . واغراه انها تعرفت اليه من طريق الادب البرىء والبحث البرىء . ثم رأى فى شكاواها المنزليـة ما يستحق العطف ويستحق التقدير ففكر فى أن يتشجع ، ومر على ذهنه خاطر الزواج . . .

وشاءت الظروف الطيبة ان تنتقل الفتاة وأسرتها الى الاسكندرية فى الصيف . وأن تقطن بجوار منزل من منازل افراد اسرته المقربين اليه . واختلطت الاسرتان وامتزجتا ، وجاء ذكر الاستاذ على لسان الفتاة . . .

ثم تقدم الحديث وتوغل فجرى البحث من ناحيتهـا عن اخلاقه . وعوائده وروحه . واستعداده للزواج . ففهمت القريبة ما شاء لهـا ذكاؤها وقرظت قريبها أحسن التقريظ . . .

وكانت المباحث وفق مرامها فطربت ولم تستطع أن تخفى سرورها وانكشف الموقع فانتقلت المتحادثتان مباشرة إلى « مشروع الزواج » . . .

☆☆☆

وبلغت التفاصيل الى الاستاذ فابرق بالموافقة من غير تحفظ ومن غير

قيود . واستمر تزاور الاسرتين والموضوع هو حديث الايام والليالى على أن تتم الاجراءات فى القاهرة ! . . .

✡✡✡

وكنا قد وصلنا الى أواخر سـنة ١٩٢٣ وقد خلق الانكليز للبلد « برلماناً » و « انتخابات » وشرع الاستاذ يعد نفسه لخوض غمارها . فاظهرت الفتاة من المشاعر ما رسخ فى ذهنه أنها سوف تكون حقا الزوجة المسعدة ، والشريكة التى يضمن بمعاونتها صفاء الحياة . . .

ولأمر ما انقطعت المخابرات التليفونية وانقطع الاتصال فظن انهـا لا بد وأن تكون بارحت القاهرة الى مزارع الاسرة فى اقليم ناء بعيد . . .

وكان قد نصح لها ان لا تكاتبه . وذلك كان مبدؤه الذى اذاعه . فان امقت ما كان يمقت ان تسرف الفتاة فى الخطابات التى قد تكون يوماً ما سبباً فى اشكالات وأحزان . . .

ولـكن الزمن طال وأصبح من غير الطبيعى أن يكون الانقطاع ، طبيعياً . . .

ومن السهولة أن يتحرى عما اذا كانت بالقاهرة أو لا . . .

وقد تحرى فعلم انها لم تغادر القاهرة !

ماذا ؟!

لا بد من ان ينكشف السر !

✡✡✡

وجاءته بوستة الصباح بعـد اسبوع فميز من بين الخطابات خطاباً فخماً مزخرفا تبدو عليه الوجاهة ففضه بشغف على اعتقاد انه منها . . .

كان منها حقيقة ولم يكن منها . كان من ناحيتها . كان من حولها . لانه كان عنها وعن مصيرها . . .

كان بطاقة دعوة لحضور حفلة زفافها من فلان ابن فلان ! ! !

وسقطت دمعة هي دمعة « الكبرياء » ولكن سرعان ما مسحها بأنامله الفيلسوفة . ولكنه لم يستطع ان يطارد الالم النفسانى الذى انتابه فهو قد جرح فى عزته بغير مبرر وبغير سبب . . . وتساءل : هل من الانصاف – على كل حال – ان يفاجأ هذه المفاجأة القاسية ؟ !

وهل كان من الضرورى أن يدعى لحفلة الزفاف ؟ !

إذن لا بأس !

بالرفاء والبنين انت ايضاً . . .

الخطيبات نمرة « ٤ ، ٥ ، ٦ »

لقد عتب عليه اقاربه انه لم يوجه رغبته الى اسرته . فوقع من نفسه الاحتجاج موقع القبول . ولكن الاسرة القديمة لها تقاليد امنع من ان تنال . ولها اسوار من فولاذ لا تقوى على مهاجمتها الافكار العصرية : السفور فى هذه الاسرة جريمة . والحب كفر ، والاختلاط بين الفتى والفتاة عار ! . . .

وبالرغم من ذلك اختار الخطيبة الرابعة . وجرت محادثات هامسة مكتومة قدسية لاهوتية جديرة بالهيا كل والاديرة . لم ؟ ! لان الفتاة يوم ان ولدت كان قد تكلم عنها اهل الفتى الفلانى يوم ان ولد ، وصدر

العرض من هناك والقبول من هنا . وكلام الاشراف شرف ولو كان عن طفل وطفلة فى سنى الرضاع . إذن ليظل كل شىء فى « السر » خافتاً ، ميتاً ، طويل الامد ، خوفا على عواطف الاسرة الموعودة ، وحرصاً على كرامة الاسرة الواعدة ؟ ! . . .

وأين الفتى ! ؟

هو لايزال يتعلم . فيجب الانتظار حتى يتم دراسته . ثم يجب الانتظار حتى يكون مستقبله . ثم يجب الانتظار حتى يتكرم فيقول : لا ! . . .

وحينئذ تتحلل الاسرة الواعدة من وعدها . وتصون كلمتهـــا . فتصح اذاعة الخطبة ويجوز الاعلان ؟ ! ! !

ورفض صاحبنا كل الرفض هذه « الرهنية » ويبحث عن الخطبية الخامسة . . .

وهي فتاة استأثرت بالجمـــال والكمال دفعة واحدة . وكانت غير مرتبطة بوعود أو بعهود . وقطعت الاجراءات شوطاً بعيداً وسريعاً . وأوشك كل شىء أن ينتهى وان يتحدد . ولكن ! . . .

لكن فى آخر لحظة اصطدم حظ استاذنا العاثر بمشكلة «الرضاع» . . .

وجاء دور الخطبية الاخيرة ولها حكاية طويلة تتلخص فى جملتين : « ان الزواج قسمة . وربنا ماقسمش » ؟ !

☆☆☆

رسخ فى ذهن « الضاحك الباكى » بعد هــذا التاريخ الزواجى الطويل أن الحكاية « مقصودة » من القدر ، وان القضاء والقدر لايريدان أن يتزوج . واحترام القضاء والقدر فرض وأمر واجب الطاعة ! . . .

دستور وبرلمان ؟!

إن صيف سنة ١٩٢٣ كان شيئاً جديداً فى حياة مصر . . . تمخض تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ عن شىء ظريف اسمه « دستور وبرلمان » . . .

رقصت بعض الاحزاب وطربت واطلقت الزغاريد وأقامت الزينات ورقت الاعياد فى رسمياتها . وكشرت بعض الاحزاب عن انيابها ولبست السواد ونادت بالويل والثبور وعظائم الامور واعتبرت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ نكبة ؟ ! .

ونشبت المعارك ودار الطعن والطحن والضرب والنزال والنضال حتى نادى المنادى فى البوق ان هناك « انتخابات » فاذا بالاحزاب الضاحكة والاحزاب الباكية تقبل على الانتخابات ؟

والنيابة عن الامة شرف أى شرف . ثم فيها ايضاً « مرتب » . . .

وفيها ايضاً « ابونيه » . . .

وفيها أيضاً « حصانة » . . .

وفيها أيضاً نفوذ وجاه . . .

وفيها مطامع وآمال . . .

☆☆☆

كانت « النيابة » المودة الجديدة للفخفخة والنفخة وحب الظهور . كانت رتب الباشوية والبيكوية هى مطمح الانظار فيما مضى . أما فى

تلك السنة فقد بطلت المودة القديمة وحلت محلها المودة الجديدة : النيابة عن الامة ! . . .

وانكمش الانكليز « الغلابة » فى معسكراتهم ومنازلهم و « قصر نيلهم » و « قلعتهم » و « عباسيتهم » و « ابو صويرهم » خائفين يرتعدون ويرتعشون خوفاً من الوحش الفاغر فاه والقادم عليهم بعد حين : البرلمان ! ! !

ذلك ما تراءى لكل مصرى فى اليقظة لا فى المنام . فى العلم لا فى الحلم . فى الحقيقة لا فى الخيال . . .

وكانت المناصب الوزارية محتكرة فى وسط معين . وفى شخصيات معينة . أما اليوم فالمودة جديدة أيضاً . والنيابة عن الامة ستكون مزلقا أو مرقى الى العلا والى السماء . . .

اذن هيا ياجيوش المؤملين الطامعين الطامحين فازحفى . . . ازحفى واستميتى وابذلى وحاربى وكافحى وضحى وابذلى المستحيل وغير المستحيل حتى تفوزى بالكنز الثمين . والمجد المتين . والنصر المبين . . .

وافتتح ابليس اللعين معركة الانتخابات فضاعت اسر . وضاعت روابط . وضاعت تقاليد . وضاعت ثروات ! . . .

☆☆☆

اقتحم الاستاذ دائرة من الدوائر الانتخابية له فيها عصبية وقرابة وجوار . ولكنها لم تكن من دوائر اسرته المضمونة . تلك احتلها اقرباؤه المقربون . وكانت سنه دون السن القانونية بسنتين . غير انه كان من ساقطى القيد فى اقليمه فانتهز الفرصة وجال جولته الاولى وحيداً

ليجس النبض فاستقبل بالترحاب فى كل دار وفى كل مكان . الوجود كلها باسمة . والعواطف كلها فياضة بالاعجاب والتقدير . ولكنه لم يكن من حزب « سعد زغلول » العظيم . وكان الرجل الفذ قد غمر القطر كله بسحره وسلطانه . وكان مرشحه فى الدائرة رجلا معروفاً . له ثروة طائلة وضياع كثيرة . وله مقر وله روابط . ولكن الشاب لا يحفل ولا يتردد ، ولم يكن هناك متسع للاختيار فأقدم ! . . .

وكان المحامى الناشىء قد جمع ثروة صغيرة من ربحه الخاص . لا تزيد على خمسمائة من الجنيهات . ودخل المعركة متسلحاً بعلمه — وشهادته — وحظه الصحفى السعيد — والخمسمائة من الجنيهات ! . .

أما « منافسه » فلم يكن إلا من أرباب الضياع . . .

☆☆☆

كانت وسائله الخطب والبيانات . . .

وكانت وسائل خصمه الخراف . والعجول والديكة والفراخ والحمام والطعام والشراب . . .

وكان اعتماده على كرامة العلم وحرمة المبدأ . . .

وكان اعتماد خصمه على « سعد زغلول » . . .

وزحف موكبه الصغير الى القرى والكفور والعزب فكان يشرب فى اليوم أكثر من سبعين فنجانا من القهوة . وكان يأكل أكثر من عشرة أرطال من العجوة . وكان لا يملك أن يرفض هذا الضرب من ضروب الاكرام وإلا عدوه متعجرفاً عديم الاصل جاهلا بالاصول ؟ !

وهزم المحامي الناشيء هزيمة « مبلوعة » بعد أن جيش عليه منافسه جيشاً عرمرماً من اقطاب الوفد وخطبائه . فاضاع وقته واضاع الخمسمائة من الجنيهات ؟! . . .

☆☆☆

وعاد الاستاذ الى مكتبه الريفى يحاول اصـلاح ما افسده الدهر وافسده الانتخاب . وراجع حسابه فى البنك فوجد الرصيد صفراً !!!

وفى ليلة من الليالى السوداء الممطرة انتابته السويداء . وهو قد اعتاد فى الليل ان يعاشر جدران الغرف والكتب وملفات القضايا . . .

ولكنه فى تلك الليلة شعر بألم الوحـدة وشعر بأنه ثائر على كل شيء : على نفسه — وعلى واجبـه — وعلى مهنته — وعلى حاضره ومستقبله . . .

وكان عائداً من القاهرة . وتذكر وقد انتصف الليـل انه لم يقرأ بوستة الايام الماضيـة . فلجأ اليها عله يجد بينهـا ما يخفف من لوعته واشجانه . . .

وفض الخطاب الاول فاذا به من متعهد حفلاته الانتخابيـة فى الدائرة يطالبه ببقية حساب قدره عشرون جنيهاً ؟! . . .

وفض الخطاب الثانى فاذا به من شاب سعدى يهنئه فيه بالسقوط ؟!

وفض الخطاب الثـالث فاذا به من مخلص آسف يكشف له عن عيوب قانونية فى اجراءات الانتخاب ؟! . .

وفض الخطاب الرابع فاذا به من موكل يخطره بأنه تصالح مع خصمه ويطلب اليه رد ثلاثين جنيهاً قيمة مقدم الاتعاب ! . .

أما الخطاب الخامس فكان من عائلة منحوسة تدعوله بطول العمر وتطلب اليه أن يمدها بالاحسان ! . .

ورفع الخطاب السادس فاصطدم بخط دقيق انيق اضطربت له حواسه وتفتحت له عيناه . . .

إن الخط يعرفه . . ولكن لمن ؟

إنه خط . . ولكن ليس من خطوط الرجال . .

إنه من سيدة ! فمن تكون ؟ ؟

☆☆☆

والله إنها لحكمة !

كان من الضرورى جداً أن يخلق الله صنف النساء . .

لهن فى الازمات دور لا يلعبه غيرهن ولا يجيده غيرهن . .

إنه لم يعرف بعد ممن الخطاب ولا ما هو مضمونه إن كان خيراً أو شراً . .

ولكنه حن للخط وحن للنساء . .

وفى الشدة التى هو فيها . وفى الوجيعة التى يقاسيها . شعر كأن عاملا من عوامل الانشراح قد طرأ والسلام . .

وأخذ يفض الخطاب برفق ولين ووداعة ثم قرأ ما يأتى :

« صديقي شكرى :

« ان كنت لم تعرف الخط بعد فلا تتعجل ولا تسرع الى الامضاء . . .

« أنا صديقة قديمة . بل كنت اكثر من صديقة . وقد سمعت بنبأ سقوطك فى الانتخابات . وفهمت بالبداهة انك ستكون معتم الخاطر مظلم النفس . فرأيت من واجبي ان افعل شيئاً رغم ظروفى ورغم بعدى عنك وبعدك عنى . وماذا املك ان افعل ؟ لا شيء إلا أن أكتب اليك هذه الكلمات . . .

« ولست ادرى ما الذى حملنى على الاعتقاد بأن كلماتى هذه ستكون لها مكانتها فى نفسك وفى قلبك كما كانت منذ سنين ! . .

« ألا يدهشك انى اخاطبك كأنى — لا ازال — من ذوات الحقوق عليك ؟ اغتفر لى جرأتى فمن يدرى ؟ لعلك نسيتنى ولعلنى أكون مبالغة فى اعتدادى بدالتى عليك . سواء أكان قدرى عندك غالياً أم رخيصاً فاظنك لا ترفض كلمة مواساة وتشجيع من صديقة لا تزال تشعر بأن عليها واجبا نحوك فى اويقات وجيعتك وألمك . وكم كنت احب ان اعلم مبلغ وقع هذا الخطاب فى نفسك . ولكننى اعلم انك لا تملك ان ترد . .

« انى اتتبع اخبارك بقدر ما تسمح به الاخبار العامة . وثق — يا شكرى — واسمح لى ان اخاطبك بغير رسميات . . انى لن انسى وفاءك ولا عفتك ما حييت . بل لقد بلغ من جرأتى انى رويت لزوجى كل حكايتى معك . وبهذه المناسبة اخبرك انى سعيدة وانك كنت نبياً صغيراً حين تنبأت لى بأنى سأنسى فجيعتى . . ولنا ابنة صغيرة جميلة تحدق فىَّ بعينيها الجميلتين وأنا أكتب لك هذا الخطاب . وهي هادئة هدوءاً ملائكياً على خلاف العادة . كأنها تعلم من طريق الالهام انى أؤدى واجباً مقدساً نحو عزيز على لا أنساه ولا انسى ذكرياته ونبله . .

« اذا كانت مكانتى لا تزال كما اعهد فى نفسك فانى واثقة انك ستنسى مرارة التجربة الانتخابية الاولى . .

« عدنى إذا طافت بك ذكرى هـذا الفشل ان تذكرنى . وان تنسى . وان تهش . وان تبتسم . . .

« ثم عدنى ان تذكرنى دائماً الى ان نلتقى على وفاء كما افترقنا عن وفاء . . . ولك تحياتى م؟

من المخلصة

٣٠ يناير سنة ١٩٢٤ « مريم »

(١) برلمان سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥

فى يناير سنة ١٩٢٤ ــ أو حوالى هذا الشهر إن لم تخنى الذاكرة ــ شكل زعيم الامة وقائد جيش الكفاح ضد الانكليز الوزارة . . .

وكانت وزارة أثارت العجب وأحدثت فى تقاليد البلد الوزارية حدثاً جـديداً . انبعثت منها رائحة الديمقراطيـة واحتوت بعض « الافندية » . . .

محاولة جريئة تعمد فيها « سعد زغلول » أن يهشم التقاليد القديمة فنجح ! ! . . . وان يذيق « الشعب » طعم الحكم فنجح ! . . . وان يبرهن على ان الامة « مصدر السلطات » فنجح ! . . .

وتوارى « الانكليز » فهلل الشعب وكبر . وطار الناس فى جو الامانى والخيال فصعدوا للسماء ، وطاولوا الجوزاء . . .

لم لا ؟ ! . . .

بلد مستقل !

وزارة شعبية !

دستور وبرلمان !

سفارات وقنصليات ! . . .

وفى منتصف مارس وقف « شكرى » الراسب فى الانتخابات فى ميدان قصر النيل يتفرج على موكب النواب والشيوخ ورجال الدولة الذاهبين لافتتاح « البرلمان » فصفق مع المصفقين ، وهتف مع الهاتفين . وتشنج حماسة مع المتشنجين ، ولكن قلبه رغم كل هذه المراسم والمظاهر كان يقول له : لا ! . . .

« انها نفخة كذابة . . .

« انه طبل اجوف . . .

« ان البرلمان خدعة انكليزية . . .

« ان النظام البرلمانى ، والحكم الشعبى ، مع الاحتلال ، حقنة من حقن « المورفين » . . .

✡✡✡

وكان من الطبعى ان تقصى الوزارة الشعبية الموظفين فى العاصمة وفى الارياف ممن لم يكونوا من لونها . . . والا فكيف تطمئن لهم وكيف تعمل ؟ ؟ وهكذا عزل البعض ، وحوكم البعض ، واحيل البعض على المعاش . . . فتولدت حزازات وضغائن وثارات . . .

وكان من الطبعى أن يندفع النواب فى سبيل التظاهر بالسلطة . وهم معذورون فالتجربة جديدة وهم لا يزالون « تحت التمرين » . . . وهكذا

طغت السلطة التشريعية على السلطة الادارية فكان النواب مديرى أقاليم ، ورؤساء مصالح ، ومديرى ادارات . فارتفعوا بانصارهم وعيلاتهم وكتموا أنفاس منافسيهم وخصومهم . . .

وتولدت حزازات وضغائن وثارات . . .

وتوارى « الانكليز » وراء كل هذه المظاهر يشربون « الويسكى » على صحة نجاح التجربة !!!

وانشغل البلد الثائر لقضيته ضد الانكليز ، « بالبرلمان » ، عن القضية وعن الانكليز ! . . .

فكانت اللعبة الجديدة ابدع ابتكار جادت به قرائح دهاة بريطانيا فى القرن العشرين ! . . .

☆☆☆

أما « اللعبة » الاخرى فكانت هي ايضاً ظريفة : المفاوضة !

جربها « سعد » مرة فانتهت بالفشل !

وجربها « عدلى » مرة فانتهت بالفشل !

وها هو « سعد » فى سنة ١٩٢٤ يجربها مرة اخرى . . .

وسافر الزعيم يحمل آمال أمة : فيه وفى « مكدونالد » العادل المنصف ؟! . . .

كانت مفاوضة ما اقصرها وما اوجعها . . .

جرحت فيها كبرياء الزعيم . وكبرياء الامة . وانتهت فى لمح البصر بالفشل !!!

وبدأ رد الفعل القاسى يحدث أثره فى نفوس الجماهير الساذجة :
ماذا فعل البرلمان ؟ ولم لم ينسحب الاحتلال ؟ وأين أين السودان ؟
وأخذت الاحلام تتلاشى وتبددها اليقظة ويطردها نور الصباح ! . .

(٢) برلمان سنة ١٩٢٥

حدثت حادثة السردار المشئومة فقامت القيامة واقتحم اللورد اللنبى بجنوده دار الحكومة « المصرية » وقرأ الانذار التاريخى الرهيب على رأس « سعد زغلول » ثم توالت الحوادث بسرعة البرق . فهوت وزارة الشعب وهوى برلمانها ودستورها . وتألفت وزارة مختلطة من حزب الاحرار بناة الدستور وحزب الاتحاد الذى ترعرع فى هذا العام واشتد وصال وجال . ثم جرت الانتخابات على يد « صدقى » فحاصر الزعيم وحبسه فى داره وخفت صوت الشعب . وحدث ائتلاف بين الاحزاب الكارهة لسعد زغلول ، ووفد سعد زغلول

وجرت الانتخابات على هوى الوزارة القائمة وتكون « برلمان سنة ١٩٢٥ » ولكن ! . . .

ولكن كانت أيضاً الاغلبية للوفد ؟ : . . .

واكتسحت الامواج موظفى الوزارة الشعبية وأنصار الوزارة الشعبية فاصبح كل مدير بلونين ، وكل عمدة بثلاثة الوان ، وكل وجيه باربعة او خمسة الوان . . .

وانعقد مجلس النواب ومجلس الشيوخ ثم جرت انتخابات الرياسة

فكان « سعد » رغم كل ذلك الاعداد هو المتغلب ! ! . . .

وفى ساعتين اثنتين حل مجلس نواب سنة ١٩٢٥ فكانت مهزلة تاريخية وسخرية دستورية عديمة المثيل ؟ ! ! !

وتجلت اللعبة الانجليزية الدستورية البرلمانية مرة اخرى بشكلها المضحك المخجل الظريف والناس ــ بعد ــ لا يفهمون ولا يعقلون ! . . .

☆☆☆

وجاء دور « الاحرار الدستوريين » . . ولم يدم ائتلافهم مع حزب الاتحاد طويلا فقد حدثت حادثة كتاب « الشيخ على عبد الرازق » فقذفت بهم وبحزبهم من حالق « واخلى طرفهم » فى الحال واسدل الستار على برلمان سنة ١٩٢٥ بعد ان ابتلع اموال المترشحين . وبعد ان نكبت الامة نكبة جديدة فى اخلاقها وروابطها وهنائها . . .

☆☆☆

ونسى الناس الانجليز ، والاحتلال ، والحرية ، والاستقلال ، وتضاربوا حول كراسى الحكم وحول مقاعد البرلمان ؟ ! . . .

وتمخضت مصر عن ائتلاف عظيم خطير بين الوفد ــ والاحرار ــ والحزب الوطنى

. . . وتجلت اللعبة الانجليزية مرة اخرى فارخت الحبل « للائتلاف العتيد » فدحر خصومه وقسمت الدوائر الانتخابية على احزابه الثلاثة

وجرت الانتخابات فى سنة ١٩٢٦ ففاز « الاستاذ شكرى » بالتزكية وأصبح عضواً فى مجلس النواب ! ! !

(٣) برلمان سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨ ؟ !

برلمان حافل بالشخصيات الضخمة من جميع الاحزاب. أما « سعد » فقد تجهم له الانكليز واشترطوا أن لا يكون رئيسا للحكومة ! . . .

وأقام له النواب المنتخبون حفلة شاى فى نزل الكنتننتال لتكريمه.

ولكن ظهر انه كان هناك غرض خفى ، فقد قام بعض انصاره ينصح له بعدم قبول رياسة الوزراء ، فنهض الاستاذ « شكرى » يعارض الفكرة ويقول انها تقهقر ورضوخ من زعيم الاغلبية لارادة الانكليز ، وقام طبيبه الخاص فأيد النصح بالتخلى عن الحكم ، ثم قام « سعد العظيم » وقال ان صحته لا تساعده على العمل فى رياسة الحكومة ؟ !

وانكشف الستار وضرب الانكليز الائتلاف أول ضربة ففرضوا ارادتهم واقصوا زعيم الاغلبية عن الوزارة فتولاها « عدلى يكن » . .

وكان برلماناً حافلا بالعظماء ، غنياً بخطبائه وحملاته وزحفه . ولكن لا على الانكليز . . وانما على الحكم السابق ، وعلى الاحزاب السابقة . .

أما قانون العمد ـ وقانون السلاح ـ وغيرهما وغيرها فقد لعبت بشأنها السياسة الخفية ونفذت مشيئة الانكليز . . .

ومات سعد وبدأ عقد الائتلاف فى الانفراط وانسحب عدلى وثروت

وجاء « مصطفى النحاس » فضربه الانكليز الضربة القاضية بحكاية « قانون المظاهرات » فاشتد البرلمان واحتد وتجهم وكشر عن انيابه . . ثم ؟ ثم ؟ تقهقر بغير انتظام وانكمش أمام البوارج والمدمرات والطرادات . . .

ولعبت الدسائس وانسحب محمد محمود وأقيلت الوزارة الشعبية وحل مجلس النواب وأوقف الدستور . .

ولعبت اليد الحديدية المحمدية المحمودية دورها فبطشت واقصت وقربت . وفاوضت المفاوضة الخامسة بعد مفاوضة ثروت الرابعة ثم فشلت وانهارت وتوارت عن الانظار . .

(٤) برلمان سنة ١٩٣٠

وانتصر الشعب مرة اخرى وتولت الوزارة النحاسية الحكم وفاوضت وفشلت للمرة السادسة . ثم ارتطمت بقانون محاكمة الوزراء . واستقال النحاس استقالة لا تخلو من المؤاخذة السياسية . وتجلى « صدقي » فى الميدان

(٥) برلمان سنة ١٩٣٠

وعدل الدستور وقانون الانتخابات وكون مجلس النواب الخامس والقراء يعلمون جميع التفاصيل فلا داعى للاشارة اليها . ولا يعلم إلا الله مصيره

☆☆☆

هذا هو المرور السريع على نظامنا النيابى ، والدستورى ، والحكمى رأيت من واجبي ان ادونه فى هذه الصفحات ليكون القراء على ثقة من ان « الدستور والبرلمان » لعبة انكليزية مكشوفة شغلت زعماءنا عن

القضية العامة ، إلى قضيتهم الخاصة . . وحولت جهودهم من ان تتجه ضد الانكليز الى ان تتجه ضد بعضهم بعضاً

وكانت هذه اللعبة نعمة وبركة على انكلترا ووبالا على مصر وعلى مرافقها الحيوية ، ومصالحها الاقتصادية واحوالها الاجتماعية ، فتدهورت جميعاً وهبطت للحضيض ! . .

ولا تزال الاحزاب تتناحر حول الحكم ولمن يكون ؟ وحول الكراسى النيابية ولمن تكون ؟ ولا يزال المصري هو عون الانكليزى ضد المصرى ، ولا تزال الفوضى ضاربة الاطناب

اما الاستقلال . .

واما الاحتلال . .

واما القضية المصرية . .

فسلوا عنها ضحايا سنة ١٩١٩ ، وسلوا عنها الخيال ؟ ! !

. . . .

. . . .

حياة «الجارسونيرة» !

إن النائب المحترم قد ارتدى فى صباح يوم من أيام سـنة ١٩٢٦ بذلته الرسمية الانيقة هو وأحد زملائه النواب ليحضروا جلسة افتتاح البرلمان العظيم . .

وأقلتهما سيارة فخمة سارت تتهادى بين الجماهير الحاشدة ، وبين رجال البوليس والمدافع الداوية وبين الهتاف الحماسى المرتفع للسماء . فكانت الساعة ساعة من ساعات العمر النادرة فيها كل عناصر الزهو والغرور ، والاعتداد بالنفس ، والطموح الى العلى . .

وفى دار البرلمان وجد النائب المحترم نفسه بين عظماء البلد وكبرائها واقطابها والقابضين على زمام الحكم . ثم شعر لاول مرة ان هؤلاء جميعاً سيكونون تحت رقابته وتحت هيمنته وسيطرته . ثم رفع بصره فوجد شرفات البرلمان حاشدة بسفراء الدول والصحفيين الاجانب وعقيلاتهم ثم بالامراء والعظماء وكبار ذوى الحيثية من النساء والرجال

وزاده غروراً وسعادة انه كان اصغر اعضاء البرلمان سناً فجلس بجوار سعد زغلول واستقبل فى السراى الملكية عملا بالدستور وضخم امره وكبر . وكانت له فى البرلمان ـــ بعد ذلك ـــ جولات وصولات ليس هذا مكانهـا وانما نحن نسرد قصة اجتماعية اكثر منها سياسية . فلنهمل السياسة من الآن فقد اضحكت وأبكت « الضاحك الباكى » وهو إذ يذكر اليوم تاريخه السياسى يخلص الى نتيجة محققة ادركها قبله شاعر مصر القومى رحمه الله إذ قال :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم	هي أمة تلهو وشعب يلعب ! ...

☆☆☆

كان لابد للنائب المحترم من ان يسكن فى القاهرة حيث مجلس النواب. ولما كانت عائلته مكونة منه، ومنه ، ومنه ، فقط . . . فقد اتفق مع أحد أقاربه الاعزاء الذين مزجوا بين عاطفتى القرابة والصداقة فاشتركا فى استئجار « شقة » فى مركز يقولون عنه انه « سنترال » وعاشا معاً من سنة ١٩٢٦ حتى السنة التى تنتهى ــ أو التى شئت ان تنتهى فيها ــ هذه القصة ! . . .

وكانت « الشقة » مكونة من صالة رحبة ، وغرفة استقبال ، وغرفتى نوم ، وغرفة للمائدة ، الى غيرها من الملحقات التى توجد فى مثيلاتها من المساكن العادية . . .

وزين الشريكان « الشقة » بالورق الجميل ، ووضعا فيها تليفوناً ، وأثثاها « بموبيلية » لا بأس بها . حتى اذا فتحت ابوابها وافتتحت رسمياً أطلق عليها الاخوان والخلان اسم « الجارسونيرة » . . .

لا أدرى لم يصدم هذا اللفظ النفوس وهو تعبير صحيح بلفظه ومعناه ينطبق تمام الانطباق على مساكن الاعزاب ؟ !

ولا أدرى لم كانت تكال التهم جزافا الى هذه « الجارسونيرة » ويعلم الله انها مظلومة ؟ ! يعلم الله انها كانت جامعة اخلاقية سالت فيها دموع . وتهذبت فيها اخلاق . وصلحت نفوس . واستقامت شخصيات . وتطهرت سير . وتجلت علوم وفنون . وفاضت عظات وعبر . . . ثم يعلم الله انها كانت دار مواساة وسلوى وانصاف للمظلومين والمظلومات من

الظالمين . . . ثم يعلم الله ان هذه « الجارسونيرة » كافحت فى سبيل الحق حكومات وسلطات وحيثيات حتى انتصرت اخيراً بفلسفتها ونبلها وحماسها للحق على المال والجاه والسؤدد والنفوذ . . . بغير مقابل ؟ ! !

بل يعلم الله ان « المقابل » كان جحوداً كافراً . وانكارا فذاً للجميل ! . . .

نعم . . .

كان يستقبل الصديقان القريبان الشريكان فى هذه « الجارسونيرة » طوائف من أجمل وأزهى وأزهر زهرات الجنس اللطيف من كل لون ومن كل جنس ، ومن كل بيئة ، ويعلم الله ما كان تاريخ هذه « المؤسسة » تاريخ مجون أو لذة ، أو سكرة أو هوى فاسد ، وانما كان تاريخ آلام . وفواجع . وأوجاع . ودموع . وشجون ! . . .

كشفت حياة « الجارسونيرة » للصديقين القريبين الشريكين سر الحياة الاجتماعية فى هذا القطر البائس ، وبالاخص فى عاصمته الخلابة الساحرة الفاجرة ، كشفت لهما القناع عن اسرار البيوت . واسرار السياسة . فهالهما ان بناء الاخلاق فى هذا البلد قائم على أساس متداع ضعيف وأن النكبة أقسى وأمر مما يخال الخيال . وآلم وأوجع مما تصور المبالغة ومما يصور الابتكار ! ...

وها هى « الجارسونيرة » ساعة كتابة هذه السطور . قد هجرها الصديق القريب الشريك بعد أن أتم الله عليه نعمته بالزواج ، فغدت وأمست مسجداً صغيراً قام فيه منبر الاخلاق ، واحتشدت فيه « الذكريات » النقية ، وشملت الوحدة الاستاذ « شكرى » فاخذ

يدون مذكراته ثم دفعها لصديقه مدون هذه القصة ليصوغها للقراء فى قالب العظة والدرس لعل فيها بعض العلاج ! . . .

١ ـ ريتا . . .

" RITA "

فى « برمنجهام » بانجلترا هبط الطالب المصرى « سعيد » ليلتحق بجامعة من جامعاتها ، لا يعنيكم ولا يعنينى أن تعلموا ان « سعيداً » هذا ولد فى قرية صغيرة ، وفى دار صغيرة من قرى ودور اقليم القليوبية . أما ابوه « الشيخ مصيلحى » فكان رجلا لا من الوجهاء . ولا من انصاف الوجهاء وانما من « ارباع » الوجهاء . من الذين يملكون عشرين فداناً لا أكثر ولا أقل . . . ووالدة « سعيد » كانت ـ وأظنها لا تزال ـ من الطراز القديم . الذى لم ير العاصمة فى حياته الا مرتين اثنتين ، لزيارة « السيدة زينب » ليس إلا . . . وفاء « لنذر » . وانجازاً لوعد وعهد ! . . .

نزل الفتى « سعيد » فى « بنسيون » لعائلة انجليزية مكونة من أب « حداد » وأم عجوز . وفتاة تسمى « ريتا . . » . .

وكان الشاب فى أيامه الاولى وديعاً ، مؤدباً ، خجولا ، مرتبكا ، ولكن بارك الله فى اخوانه ومواطنيه هناك : علموه ولقنوه الدروس ولمح ان كلا منهم يصطحب فتاة فى محال الشاى ، ودر السينما ، ورحلات آخر الاسبوع . . شاغل الفتاة « ريتا » بظرف المصرى الجذاب فانقادت

الى ظرفه ودعته . وأبت كبرياؤه القومية فى مهجر العلم إلا ان يتظاهر . وداء المصرى ــ كبر أو صغر ــ هو التظاهر . والتظاهر ارفع مرتبة من المورد فاندفع وتلقى « الشيخ مصيلحى » الطلبات بالبريد وبالتلغراف مصحوبة بمعاذير المصروفات المدرسية ورحلات الاجازة . والمرض القاسى ، والكتب ، وأيدت دموع الام طلبات الابن الوحيد فرصد الاب المسكين ايراده كله ، وربحه كله ، على فلذة الكبد فى « بلاد الغربة » ؟! . .

ثم استدان . . .

ثم باع . . .

والابن فى فترات الاستدانة ، وفترات البيع الودى والجبرى ، يتمادى فى عواطفه وفى طلباته والشهور تمر والاعوام تمر والابن لا يرحم والاب يقول : لاحول ولا قوة إلا بالله . . .

عرفتم « سعيداً » فى مصر وفى مسقط رأسه . وعرفتم فى مصر من هو ابوه ومن هي أمه ، وما هي داره ، وما هى ثروته المنتظرة . فهل عرفتم فى « برمنجهام » من هو ؟! . . .

تقول « ريتا » لامها العجوز : إن أباه من كبار « الباشوات » حكام المقاطعات . وملاك المزارع ... ان عندهم ثلاثة اسطبلات لخيول السباق . ان الجواد « سرحان » ، و« تت بت » و« سلطان » تربح آلاف الجنيهات فى كل موسم . . . ان عندهم غابة عظيمة للصيد والقنص . . . ان فى قصرهم الريفى تكعيبة عنب تمتد الى مسافة كيلو مترين داخل الاسوار . . . آه يا أمى : إننى لسعيدة ، وقد أحببت مصر الغنية بلد المدهشات والثروات ! ...

وتقول العجوز باسمة : صدقت يا « ريتا » . أبناء الارستقراطية هم الذين يحضرون لانكلترا للعلم . حظ سعيد يا ولدى !

ويحضر الاب « الحداد » فى المساء « فتدردش » له العجوز وتروى الاعاجيب . فيبتسم الاب الطيب ويقبل امرأته فى سكون الليل فرحاً بسعادة الابنة المحبوبة . . .

✡✡✡

وتمر أعوام الدراسة العادية و « سعيد » لا يزال يدرس . . .

والاب لا يزال يرهن ويبيع . . .

والام لا تزال تبكى . . .

وفى ليلة سوداء يرد خطاب من انكلترا . فيفضه الاب بلهفة فيجد فيه الصاعقة : صورة فوتوغرافية لسعيد ، ولزوجته ، « ريتا » ، ولابنهما الصغير « كمال » ! ! !

✡✡✡

ويمر عام . ثم عام . . .

ويحصل « سعيد » على شهادته العليا من جامعته الانكليزية . . .

ويعود مع زوجته وابنه . . .

ها هي الباخرة تصل الى بورسعيد . . .

الى الوطن المصرى . . .

وتركب « ريتا » القطار فى يونيه . . .

والخيال لا يزال يرتفع بها الى السماء . . .

ولكن القطار قذر . والحر شديد . والغبار يكتم الانفاس . . .

أين الجبال ، والهضاب ، والخضرة الفرعونية ، والمناظر الطبيعية ؟ ؟
لا شيء . . .
وهذه الجلاليب . وهذه الزعابيط . وهذه الازياء المتنافرة . انها أشياء تتنافر والذوق السليم . . .
ويصل القطار الى القاهرة حوالى الرابعة والنصف مساء . . .
وتذهب الاسرة « المختلطة » الى فندق . . .
وتمضى فيه أياماً . . .
ان حر القاهرة لا يطاق . وقد بدأت الانكليزية الصغيرة تتضايق . . .
أين الباشا الوالد . وأين « الليدى » الوالدة . انهما لم يحضرا ولم يذهب اليهما الابن العزيز . إنها جد تواقة الى « الريف » البديع الخلاب ! ؟
وأنبأها « سعيد » فى صباح أحد الايام بالسفر لزيارة الوالد . وركبا القطار ومعهما الطفل العزيز . ووقف القطار على محطة صغيرة . ان « الرولر رويس » لم يكن فى الانتظار ؟ ! وكذلك الخدم والحشم بالملابس القصبية ؟ ! كان فى الانتظار « حماران » عاديان . ركب « سعيد » أحدهما وأمامه ابنه . وركبت « ريتا » الثانى بصعوبة وخوف . أما الوالد فقيل إنه مريض فى الفراش . وبجوار الحمارين وقف بعض اقارب « سعيد » بملابسهم القروية المزهرة . كانوا بعض « نبلاء » الاسرة الكريمة ؟ ! وسار الحماران الهزيلان بالاسرة المصرية ــ البرمنجهامية سيراً بطيئاً متعثراً حتى وصلا بالركب الميمون الى القرية . فاستقبلتهم

التلال ، والمستنقعات ، وطائفة من الديكة والفراخ ، والاوز والجديان والـكلاب . . .

وأمام دار أكل عليها الدهر وشرب . ولعب بها البلى والزمن . وقف الركب ! . . .

هذا هو القصر المنيف ! . . .

أين تكعيبة العنب التى طولها كيلومتران ؟ !

أين اسطبلات الخيول ؟ ! . . .

أين أين غابة الصيد والقنص ؟ !

أين يا « سعيد » ما انبأت به « ريتا » وما انبأت به أمها العجوز وأباها « الحداد » ؟ ! . . .

خيال . . .

وأكاذيب . . .

☆☆☆

وحاول الوالد المريض ان يرحب بقلبه ولسانه . ألم يكن بطبعه مصرياً وديعاً مضيافاً ؟ وألم يكن بطبعه أباً حنوناً رغم كل الظروف ؟ !

والام : وارحمتاه لها . . .

وانتهت الزيارة و « ريتا » ببرودها الانكليزى. وجمودها البريطانى، تحاول ان تخفى وجيعتها

ولـكن هيهات . . .

وعادت الاسرة الى مصر . فسكنت شقة متواضعة . ومد الوالد

ابنه بكل ما استطاع . فكانت المعيشة اضيق واحقر من معيشة « الحداد » الانكليزى وزوجه العجوز ، ومضت أيام بؤس وشقاء . وعاودت « ريتا » كبرياؤها الانكليزية فلم تطق الصبر . فلجأت الى الوكالة البريطانية وأنت واشتكت . وتحت عوامل التأثر والتوسل ألحق « سعيد » بوظيفة فى « بنى سويف » فانتقل مع زوجته وابنه . ومرت شهور فولدت زوجته بنتا اسماها « فردوس » . . .

☆☆☆

من « برمنجهام » الى « بنى سويف » . . .

ان « ريتا » حانقة . ولكنها أم ! . . .

وماذا يتلقى الطفلان المصريان من آلام الانكليزية ومن حنق الام الانكليزية ؟ !

كره مصر ! وكره الاب المصرى ! وكره كل ما هو مصرى . . .

وبدأ « الزواج المختلط » يثمر ثمره المر . وينتج محصولا من الصبر والحنظل . . .

☆☆☆

وفى « بنى سويف » فتاة مصرية ناظرة لاحدى مدارس البنات . . .

أخذت تشاغل سعيداً . ويشاغلها سعيد !

والدم المصرى يحن للدم المصرى . . .

واستفحلت العلاقة فاصبحت غراماً . . .

ثم تمخضت فولدت « زواجاً » . . .

وكشفت الزوجة الانكليزية « الجريمة » فى نظرها فساغرت الى القاهرة وسعت سعيها الخطير . .

وانتهى الامر بالطلاق ! . . .

وحيل بين الام وولديها فهددت بالمقاضاة . وهددت بالنفوذ المقيم فى قصر الدوبارة . وهددت بالمسدس ! . . .

☆☆☆

ووظفت « ريتا » سكرتيرة فى مكتب أحد المحامين الانكليز . ونزلت فى « كنوت هاوس » فتعرف اليها الاستاذ « شكرى » وتعرفت اليه . . .

غير أنها لم تطق البقاء فى مصر وحنت الى وطنها العزيز . ووسطت « الاستاذ شكرى » فى نهو المشكلة القائمة بينها وبين زوجها بشأن ولديها . فهاله الامر وأفهمها بروح المصرى ان الولدين مصريان مسلمان . فمن المستحيل ان تمكن منهما فى غير جو مصر . وغير الاسلام ! . . .

وفى « الجارسونييرة » عقدت جلسات آثار الزواج المختلط . ونكبات الزواج المختلط . فلم تسفر عن نجاح !

ولكن « ريتا » انكليزية . ووراءها قشلاق قصر النيل ، والقلعة . وفى بحارها طرادات وبوارج ومدمرات . وجن جنونها إذ بلغها ان الطفلين يعانيان من عنت الست الناظرة . ومن الاهمال فى التربية . فحسمت الامر . واستأجرت سيارة من القاهرة واسرعت بها الى « بنى سويف » واختطفت الطفلين من على باب المدرسة !

وعلم الوالد بالاختطاف فطاردها فى الاياب بسيارة حتى التقى الخصمان فى غرفة مأمور قسم عابدين !

✡ ✡ ✡

ودق جرس التليفون فى الجارسونييرة واستدعى « الاستاذ شكرى فبادر الى غرفة المأمور . . .

وسمع الحكاية . . .

وطلب اليه « سعيد » ان يكتب بالطريقة القانونية تنازلا عن حضانة الطفلين المصريين المسلمين للام الانكليزية . مقابل عدم مطالبتها له بأجر الحضانة ولا بأية مصاريف أو تكاليف ؟!

فأسر اليه على انفراد أن الام مزمعة السفر الى انكلترا ؟!

قال الاب العظيم : ليكن !

قال الاستاذ : والولدان . . .

قال : ليذهبا حيث يشاء القدر !

قذفه الاستاذ بنظرة ازدراء رهيبة . ثم قبض على يديه بيدين مرتعشتين وصاح فى وجهه : انك لنذل !!!

« انى كمحام من واجبي أن أحرر ما تريد . ولكنى كمصرى وكمواطن ، ألعنك واحتقرك . . .

قال سعيد : إنها امرأة شريرة . وهي تهددنى بالقتل . ولا يبعد أن تفعل . بل انى لمتأكد . فاكتب لقد صممت ! . . .

وقالت « ريتا » هيا . هيا . إننى سأسافر الى انكلترا بعد باكر واريد أن أعد حوائجى وليس عندى وقت . . .

قال الاستاذ : لن افعل ... إنني بذلك أقضي على قومية الطفلين . وعلى دين الطفلين . وأرتكب جرماً قومياً خطيراً . احذر يا سعيد وفكر وراجع نفسك ! . . .

يجرى كل هذا فى غرفة المأمور . والطفلان يحدقان بعيونهما المصرية الحلوة وبسذاجة الابرياء ولا يفهمان شيئاً ...

وتحرج الموقف وتعقد . ولكن « سعيد » لم يجد فى الامر حاجة لمحام . فكتب ورقة واشترط فيها شروطه الخاصة بالمصاريف . ووقعت « ريتا » فى الحال . . .

ثم نادت : كمال ! فردوس ! . . .

فرد الطفلان : ماما ! . . .

قالت : قبلا « بابا » . . .

فقبلاه . ودموع « الاستاذ شكرى » تسيل أسى وغيظاً . . .

واحتضنت « ريتا » الطفلين وحيت الموجودين واقتادتهما الى السيارة التى انطلقت بسرعة البرق الى المستقبل المجهول فى انكلترا . . .

وانسحب « سعيد » و « المحامي » المفجوع بذل العار والشنار بعد أن خسرا المعركة . وخسرا المصريين المسلمين الصغيرين : الى ما شاء الله ! . . .

. . . .

. . . .

٢ ـ سعاد . . .

كانت فى السابعة عشرة من عمرها لما زوجوها لرجل كبير من رجال البوليس . يبلغ من العمر الخامسة والاربعين . . .

وكانت تحب ابن عمها . وابن عمها يحبها . ولكن اسرة الفتاة واسرة الفتى كانتا متحدتين فى الحيلولة ضد الزواج . . .

وعاشت الصغيرة مع رجل البوليس الكبير عيشة تعسة . وعجيب هذا النوع من الزواج . وعجيب هذا الاتحاد الا كراهي بين السن الصغيرة والسن الكبيرة . وأعجب منه عندما تصل الزوجة لسن السابعة والعشرين وعندما يصل الزوج لسن اليأس أسوة بالنساء . . .

كانت الزوجة الصغيرة لا تزال تحن حنين القلب وحنين الدم لابن العم حبيب القلب وحبيب الدم . وكان فتى وسيما جميلا يناسبها فى السن وفى الجمال . . .

ومرت سنة ثم سنة . والفتاة لا تنسى عهدها والفتى لاينسى عهده . وأخيراً لم تطق هي ولم يطق هو، فدبرا معاً . وتآمرا معاً . وانتهى الامر بطلاق الزوجة الصغيرة من الزوج غير الصغير . . .

☆☆☆

وتزوج الفتى من الفتاة . . .

واستقر الزوجان الصغيران المحبان الجميلان فى مدينة هى عاصمة اقليم من أقاليم الدرجة الاولى . . .

وكان بيت الزوجة الصغيرة أرشق بيت فى المدينة . وانظف بيت

فى المدينة . فان الفتاة نسلت من أصل تركى . وكانت ربة منزل تملأه بهجة ، ونوراً وهاجاً . . .

☆☆☆

ولغطت سيدات المدينة بجمال الفتاة . فكانت ريحانة المجالس . ووردة ايام الاستقبال . . .

ومدير الاقليم كان رجلا كبيراً . ولكن قلبه كان لا يزال كقلوب الصغار . . .

وترددت الفتاة على والدته العجوز بأمر زوجها الضابط المرءوس قياماً بواجب المجاملة . وقياماً بواجب الملق والدهان . . .

والتقى المدير بالفتاة . فراعه أنها جميلة جمالا يلفت النظر ويستحق الانتباه . . .

ولاحظت الفتاة فى يوم من الايام عطفاً خاصاً من سعادة المدير فأجفلت وجزعت . . .

وبادرت الطيبة الساذجة إلى زوجها الشاب تفضى اليه بالملاحظة الخطيرة فابتسم وقال : العبى دورك ؟ ؟

قالت بهلع : ماذا ؟!

قال : سايريه وجامليه ولكن حذار . . .

قالت : يا رجل !

قال : ألا تثقين من نفسك ؟

قالت : كل الثقة . . .

قال : علام الخوف إذن ؟ . . . نستطيع أن نستفيد . .

« نستفيد »

لفظ ومعنى عثرت بهما كثيراً فى قواميس الزواج ! . .

لا أريد ان احمل الطبيعة البشرية حملا ثقيلا ينفر منه الاحساس . وتمجـه الاخلاق . ويأباه الدم . فأتهم بعض الازواج الرجال بأنهم يستغلون الزوجات لأقصى حدود الاستغلال . ولكنى اقرر معتدلا أنهم يلعبون بالنار عن جهل ، وعن فرط ثقة ، وعن طيبة ، وعن قلة اختبار ، وعن ضعف مادى ، فيتسامحون . ويتغاضون . ويمهدون . ويفتحون الطريق . ويطلقون أول خرطوشة . ولا يقدرون النتائج بعد ذلك لانها كانت فى نظرهم بعيدة عن الخاطر البليد الغبي غير اللماح

☆☆☆

انتاب الفتاة الذهول من هذا التصريح الخطير . ومن هذا « الاذن » المخنث فرشقت الزوج بنظرة ازدراء ولأول مرة تنهدت ذاكرة الزوج العجوز الرجل ! . .

ومهما قيل عن غريزة المرأة . ومهما قيل عن عناصر إغرائهـا واستمالتها فانى أظن أنه لا المال ، ولا الجمال ، ولا خفة الظل ، بمرتفعة من ناحية التقدير الى درجة « الرجولة » ! . .

الرجولة هى ميزة الرجل . وهى المشتقة منه لفظا ، ولغة ، ومعنى . ولئن خدشت هذه « الرجولة » فى الزوج مرة فقل على الهناء العائلى السلام ! . .

☆☆☆

إن الضابط الصغير كان طموحاً تواقا الى الرقى . وكم دفعت شهوة الرقي الى أعماق اخلاقية سحيقة . دع هذه الوسيلة الوضيعة من وسائل تحقيق المآرب والمطامع . وانظر فى الازمات السياسية المصرية كم لعبت « شهوة الترقى » دورها اللعين العفن القذر فكانت الاخلاق هي المنكوبة . وكانت الاخلاق هي المدحورة المقهورة . وكانت الاخلاق هي الضحية وهي الفريسة . . .

وسرت العدوى سريان النار فى الهشيم . فانتقلت الى العمد وشيوخ البلد ووجهاء القرى والى العمال وغير العمال فاصطبغوا بكل لون . وقبلوا كل يد . وآزروا كل حكم . ونافقوا لكل ذى سلطان . . .

وشهوة الترقى ، وخشية الضرر ، ورغبة الانتقام ، كلها تروات تستوى وتتسابق وهي وثيقة الاتصال بعضها بالبعض الآخر ، وهي اليوم المظهر النشط العامل فى حياتنا السياسية والاجتماعية . . .

☆☆☆

الفتاة لم تجرب الزلة بعد . . .

هي الثائرة على الزوج وعلى سعادة المدير . . .

ولكن المرأة الضعيفة فى كفاحها القوى تحتاج سنداً يسندها ، وعضداً يعضدها ، وعاملا يقويها ويشد أزرها . . .

أين هو ؟ ؟

أهو الزوج الذى يريد ان « يستفيد » ؟ . .

أم سعادة المدير المحب الولهان ؟ . . .

وتشجع سعادته فعطف على المرأة وعلى الرجل :

أما تلك فقد أغرقها بالهدايا الذهبية ، والماسية ، والحريرية . . . وبالحلوى !

وأما هذا فقد أضاف الى نجمته ، نجمة . . .

وتوثقت العلاقة . وتعددت الزيارات . والفتاة تتدرج من العبوس الى الابتسام . ومن النفور الى الاستسلام . ومن القلق الى التسليم بارادة الزوج وارادة القدر . . .

ولكنها لم تسقط بعد في عرف الحقيقة وفى عرف الحق وفى عرف علام الغيوب . . .

هي لا تزال عفة الثوب ، نقية الازار . .

ولكنها سقطت وانتهت فى عرف الناس !

والناس فى عواصم الاقاليم لماحون ، فضوليون ، يدركون بسرعة البرق حتى لأكاد أتخيل أنهم يدركون بطريق الالهام . . .

وانطلقت إشاعة فى البلد بأن سعادة المدير و « سعاد » قد أصبحا عشيقين جسما وروحاً ، ودماً . . .

والفتاة مظلومة . . .

وعواصم الاقاليم بلاد محدودة الدائرة ، ضيقة المساحة ، محصورة الوسط . والاشاعة قد دوت دويها ، وأنذر بها الطبل والمزمار . . .

وحمل البريد الى الضابط ذى النجمتين خطابات بدون توقيع فهم منها انه أصبح محط الانظار المزدرية ، وهدف الالسنة الشريرة فجن جنونه ، وتحركت ــ بعد طول الرقاد ــ رجولته ؟! . . .

☆☆☆

وفى يوم من الايام دعا سعادة الحكمدار سعادة المدير الى الغداء . .
ومثل هذه الولائم تجمع على موائدها كبار الموظفين وكبار الاعيـــان .
وكان الحكمدار يسكن شقة فى الدور الثانى من عمارة . والضابط يسكن
الشقة التى فوقهـــا . وتناول المدير الغـــداء وشرب القهوة . ثم نهض
للانصراف . . .

ويشاء سوء الحظ أنه فى لحظة نزوله على السلم هو والجيش الجرار
الذى يتبعه . . . ووراءهم الضابط . كانت « سعاد » تلقى بعض الزهور
الذابلة المختلفة الانواع والالوان على السلم . فسقطت على رأس المدير .
وتطلع الجميع الى فوق فوجدوا الفاتنة تلقى الزهور وتنثرها على سعادة
المدير ؟ ! . .

أليس كذلك ؟

هو كذلك واحسرتاه . وتنتشر الحكاية بسرعة البرق فى البـــلدة
فـــكانت هى تسلية المجالس وحديث السهرات . وانتقلت الى النســـاء
فطرزتها بالمبالغات وبالمضاعفات والفتاة البريئة مظلومة ! . . .

وكاد الفتى يصعق من هول الموقف . حتى إذا ودع سعادة المدير
إلى المـكان المناسب عاد ادراجه وقد ثارت « رجولته » فصفع الزوجة
البريئة صفعة قاسية ثم أردفها بيمين « الطلاق » !

☆☆☆

وجمعت البريئة المظلومة العفيفة حاجاتها مطرودة شر طردة من
عاصمة الاقليم . مثلومة الشرف ، ساقطة فى نظر النـــاس جميعاً لا فى
نظر الله . . .

عادت إلى القاهرة فارتمت فى أحضان أمهـا العجوز الفانية تبكى وتلطم وليس لهـا فى دنياها إلا الام وإلا إيراد ثلاثة جنيهات فى الشهر الواحد استحقاقها فى وقف يصرف شهراً ويتأخر شهوراً . . .

☆☆☆

قاومت الفتاة أمواج الخضم الدنيوى المتلاطم الامواج وكادت تظفر بخطيب . غير أنه مالبث أن اتصل بتاريخها الكاذب مع سعادة المديرحتى أفلت وفر هارباً . . . وظفرت بثان وثالث فكانت العاقبة واحدة

وامتنع صرف الاستحقاق اليها بسبب نزاع جد فى الوقف فاغلقت ابواب الحياة فى وجهها ثم جرفها التيـار زهرة ندية يانعة إلى حيث غيب مثيلاتهـا فى قاعه حتى أصبحت فى سـنة ١٩٢٦ من زائرات الجارسونيرات !

٣ ـ لولو

« لولو » فى سن الخامسة عشرة . جمالها جمال صحى متنعش . هل تفهمون ماذا أعنى بالجمال الصحى المتنعش ؟

هو الجمال المدملج الرياضى المتناسب الأجزاء والتقاطيع . الجمال الذى يثور على حياة المخادع والبيوت والذى يقفز إلى شاطىء النهر ، وأشجار الحدائق . والهواء الطلق ، والخلاء ، والذى يمشى على القـدم كيلومترات والذى يجرى . وينط . ويحرك العضلات . ويملأ الصدر هواء . ويتمتع بنعمة « الشمس » عدوة الامراض والميكروبات . . .

كانت تسكن مع أسرتها فى « النيل » بجوار الجزيرة . والجزيرة فيها ارستقراطية . وجمال . وسيارات . وأمانى وأحلام . . .

وهي قد اعتادت أن تتريض فى عصر كل يوم . إما على القدم أو فوق « البسكليت » . . . وشاءت الصدف أن تلتقي كل يوم بسيارة فخمة فاخرة يقودها شاب فخم فاخر . . .

وأدت هذه الزمالة فى اللقاء وفى النزهة إلى النظر . فالى الابتسام . فالى الكلام . . .

ولكنه كان نظراً عادياً . وابتساماً بريئاً . وكلاماً تابعاً ــ فقط ــ للسان . . .

☆☆☆

فى الجزيرة أو فيما يلى الجزيرة سيدة كان يجب أن يجللها جلال السن ووقار الارستوقراطية وقناعة الحياة المسلحة باليسر وبالعمار . ولكنها نشأت ــ أصلا ــ فى بيت من البيوت الخاملة ثم شاء لها الحظ الطيب أن تصبح زوجة لأحد السراة الوجهاء . وأن تتربع على عرش قصر عظيم وعلى قلب زوج مستسلم . السلطة فى يمينها والمال فى يسارها والاهواء تسمم دمها وميولها . . .

إذن ليصبح القصر ندوة لا للعلماء والاقطاب والساسة والادباء . وإنما للمتعة والهوى واللذة والتسلية . وداء السيدة العضال لا يشفيه إلا أن تجمع الدار الفاخرة من حين لحين بين العشاق وجنود العواطف فى سهرات . . . وحذار حذار أن تسيء الظن بوسط الآكلين والشاربين والراقصين والضاحكين والمتهامسين من رجال ونساء ! فكلهم من طبقات

المتحررين من الدرجة الاولى والثانية ... فهناك الوزراء والكبراء وكبار الموظفين والشبان الوارثون ... وهناك « المقابل » من السيدات الكريمات الموسرات ... ثم هناك « كمالة الطقم » من مطربين ومطربات وموسيقين وموسيقيات ...

☆☆☆

الشاب الفخم الفاخر ذو السيارة الفخمة الفاخرة وزميل الصغيرة ذات الجمال الصحى المتعش فى اللقاء وفى النزهة من رواد هـذا المعهد الجليل ...

همس فى اذن السيدة الوقورة الغاوية الهاوية أن تدعوالفتاة وأهل الفتاة إلى سهرة . وأن تدعوه وأسرته إلى نفس السهرة . ليتم التعارف وليبدأ العمل ! ...

وكانت السيدة الوقورة عند ظن صديقها الشاب بمهارتها وبراعتها وكفاءتها فكانت السهرة . وكان التعارف ! ...

☆☆☆

وبدأت الصغيرة تميل . وبدأت تحن إلى حياة الارستوقراطية . وحياة البذخ . وحياة اللهو الرفيع الشأن ...

ولكن يا لخيبة الامل ! إن الفتاة قد جاءها خطيب . ولكن ليس من ذلك النوع الراقي . ولا تلك « الماركة » الـ « Luxe » ...

واسرة الفتاة متوسطة الحال . والفتى كذلك متوسط الحال . الفتى الخطيب لا الفتى الخلاب . وتقبل الاسرة الخطبة وتسير اجراءاتها بسرعة البرق . وتحاول الفتاة أن تمتنع وأن تثور على الزواج ولكن

ماذا تستطيع أن تفعل . وكيف تملك أن تقاوم والشاب الفخم الفاخر متزوج ! ولم يعرض عليها الزواج ؟ !

إذن لتخضع لحكم الواقع وحكم العقل . ولتتمرن على ان لا تفكر إلا فى خطيبها وإلا فى سعادتها الزوجية المقبلة . ويساعد الفتاة على النسيان أن الشاب الفخم الفاخر قد اختفى من الميدان وسافر الى « أوربا » مع زوجته لتمضية فصل الصيف . وهكذا تتوارى الآمال والاحلام . . .

☆☆☆

ويتم الزواج وتمر على عهده اربعة شهور سعيدة . هادئة . فيها حب وافر من الزوج المتواضع . وحب « ميولوجى » من الزوجة الطاحة . . .

ثم يعود الشاب ذو السيارة الفخمة الفاخرة من رحلته ، ويعود وسم العمل فى قصر السيدة الوقورة . . .

☆☆☆

ويستدرج الزوج المتواضع وزوجته الصغيرة الى القصر العظيم . والى السهرات المتلألئة . والى الوسط الخلاب . فينتهز الشاب الثرى الفرصة . ويختلس اللحظات ويغازل الفتاة فى غفلة من زوجها . . . وفى غفلة من زوجته ؟ !

وتمتزج الاسرتان وتتصادقان . . .

وتتكرر دعوة الشاب الثرى « للولو » فى السينما . والمسارح مع أسرته فتذهب وحدها . حتى اذا ما انتهت الرواية وصلت السيارة الى

منزله لتوصيـــل عائلته . وعادت تحمل الشاب الثرى والزوجة الصغيرة الى منزلها . . .

وفى الطريق تتجلى عواطف . وتصدر زفرات وتأوهات . وتسيل دموع . والفتاة مبهورة بمظاهر اليسر . مأخوذة بسيطرتها على قلب الشاب الارستقراطى النبيل الجميل الموسر . فتندفع !

ويتمكن الحب من قلبها . ومعذورة هي ! . . .

☆☆☆

أيها الازواج المتواضعون :

أخطر عنصر على سعادتكم الزوجية المتواضعة أن توجدوا زوجاتكم فى جو الامانى والآلام والاحلام . وفى الوسط الراقى الباهر الساحر الخاطف للابصار . حتى إذا عدتم إلى بيوتكم الرقيقة الحـــال . وإلى « شققكم » الضيقة المجال. أخذت الزوجات المحرومات المتطلعات المتمنيات تتحسر وتتمنى وتريد ؟ ! . . .

مظاهر العز فتنة . وأجواء اليسر مزلقة . فاحصروا زوجاتكم فى جوكم . واحبسوهن فى وسطكم . وحذار حذار أن ترقوا بهن للسماء لحظات . ثم تهبطوا بهن للارض سنوات ؟ ! ! . . .

☆☆☆

وهكذا لعبت الفتنة بلب الفتاة . فتغيرت على زوجها و تنكرت لجوها ووسطها . وأوعز اليها الشيطان الارستقراطى أن تبـــذل كل وسائلها للطلاق من زوجها . واعداً إياها وعد النبيل الحر ، والكريم الأصيل ، أن يتزوج منها فى الحال . . .

لم تكن العصمة فى يدها . ولم يكن حق الطلاق حقها . لئن كان هذا صحيحا فى عرف الشرع وفى عرف العرف فانه لم يكن كذلك فى عرف « العمل » . . .

المرأة التى تريد الطلاق . ولا تملك الطلاق . تستطيع الطلاق ! .

« لولو » الصغيرة الساذجة خلق منها الحب شخصية أخرى . فهى قد أصبحت في البيت الشر ، والثورة ، والكدر ، والتعاسة . . . !

ولمح الزوج المتواضع المسكين هـذا التطور فعالجه بالرقة تارة ، وبالنصح تارة أخرى . . . وبالتهديد حينا وبالوعيد أحيانا . . . حتى اذا ما كشف السر وكانت لديه مقدماته يئس من الاصلاح ففوض أمره للقدر . . .

وكان المسكين يحبها حب العبادة . ولكن كانت له بقية من كرامة وعزة نفس . وصارحته وصارحها بالطلاق فأصبح أمره محتوما . . .

☆☆☆

وفى يوم من الايام حضر المأذون الذى حرر عقد الزواج ليحرر صيغة الطلاق . فى جمع من أهل الزوج وأهل الزوجة . بذلت النصائح والفتى يتوجع . والفتاة تصمم . . .

ولم يملك الفتى المسكين الا أن يبكى . والمأذون يدون ويسطر . حتى إذا تمت الاجراءات سلمها ورقة الطلاق وهمس بهذه الكلمات :

« عندما تحتاجين إلي . وأعتقد أنك ستحتاجين . تجدينى فى خدمتك »

☆☆☆

فى الزيتون « فيلا » صغيرة جميلة مضت فيها « لولو » شهور العسل فى الحرام لا فى الحلال . . .

باعت جسمها وروحها لعشيقها . . . وخطيبها . . . بيع السماح . . .

أما المقابل فكان مجرد الوعد . . .

وبعض المصروف الضرورى للحياة . . .

وكانت له مخلصة الاخلاص كله . وكيف لا ! ألم تكن تمهد للزواج ؟ . . .

أما مظاهر الاخلاص العجيب فأهمها وأخطرها أنها قطعت صلتها بالعالم : لا بالصديقات فقط . بل بأمها واخواتها وأفراد أسرتها . وكانت الكبرياء تحول بين هؤلاء وبين الاتصال بها فى بداية الامر ولكن يا للقلوب الرحيمة الحنونة ! . . .

مهما سقطت الفتاة فان سقوطها لا يحول بينها وبين قلوب الأم والشقيقات . . .

وبذلت الشقيقات محاولات جريئة للاتصال بها فرفضت رفضاً باتاً : ان خطيبها أراد ! ! !

وسمعت الأم الرؤوم ان ابنتها مريضة فزحفت وزحفت حتى وقفت أمام الباب وطرقت . . .

فتح الباب وعرفت الفاتح بشخصيتها فعاد يعتذر اليها : البيك لا يريد ! ! !

وعادت الأم مدحورة مهزومة تبكى جحود البنات . . .

☆☆☆

وطال الامر على الزواج ومشروع الزواج . وفى اثنــاء المطل والتسويف سقطت الفتاة مريضة بسبب اعف عن ذكره . أما المجرم المتسبب فكان الشاب الارستقراطى . ونقلت الفتاة للمستشفى فضت فيه شهوراً . . .وولدت فتاة ! ! !

فى الشهر الثانى من شهور المرض زارها المغرم الولهان ، والخطيب النبيل . وقد ارتسمت على وجهه علامات الالم والكدر :

قالت له : ما بك يا « حسين » ؟ . . .

قال : مصيبة . . .

قالت جزعة : ماذا ؟ !

قال : زوجتى مريضة بالكلى . وقد نصح لهــا الاطباء بالسفر فى الحال الى فرنسا للاستشفاء تمهيداً لاجراء عملية عند الدكتور « ماريون » الطبيب العالمى الشهير . . .

قالت النبيلة الفقيرة : من واجبك اذن ان تسافر ؟

قال : نعم . . .

قالت : الامر هين . سأصبر على فراقك . وصحتى تتحسن . فان كنت تحسب حسابى فانى أقدر حرج مركزك . فلا تتردد ! . . .

قال : شكراً . . .

وتنهدت الفتاة

قال : لم تتنهدين . انى لا أزال على وعدى . وبمجرد عودتى سنعقد العقد !

قالت : انى لا أسىء الظن بشرفك . متى تسافر ؟

قال : فى أقرب فرصة . لقد اعددنا كل شيء وربما رحلنا باكراً فاذا حالت الظروف بيني وبين زيارتك مرة أخرى فاني أودعك الآن

ارتاعت الفتاة . ولكنها كظمت الغيظ وكتمت الالم . وتظاهرت بالثبات

وتبرع النبيل الأصيل بقبلة . . . ثم نهض مستأذناً . . .

ولكنه ظل واقفاً مرتبكا . . .

قالت : صارحني . إنت تخفي شيئاً ؟ . . .

قال : نعم . . .

وانتظرت الفتاة التفسير . . .

ومرت دقيقة . . .

قالت : تكلم . . .

قال : انى خجل . . .

قالت : وهل بيننا تكليف ؟

قال : لولو ! . . . هل عندك نقود ؟ ؟ انى مأزوم وعبثاً حاولت الحصول على مال . . .

انتصبت الفتاة الشريفة رغم مرضها وهزالها وقالت :

— نعم . عندى يا حسين . عندى اربعمائة جنيه فى البنك . مبلغ وفرته منك . فهو مالك . فى الشنطة دفتر الشيكات فهاته . . .

وانثنى النبيل الاصيل عليها يقبلها ثم احضر لها الدفتر ووقعت بالصرف لحامله ...

قال وهو يطويه : ثقى يا لولو أنى لن أنسى معروفك أبداً .

وسأعرف كيف أرد قرضك وكيف أؤدى واجبي نحوك يا انبل مخلوق . . .

قالت وهى تقبله : اطلب لزوجتك الشفاء وادعو لك بالسلامة . . .

وانتهت اجراءات الوداع على أرق وأحسن ما يكون . وغاب النبيل الاصيل عن النظر . . .

☆☆☆

إن « الفيلا » لم تعش طويلا بعد خروج الفتاة من المستشفى . . .

السبب واضح : ان النبيل الاصيل الذى غاب عن النظر . ظل غائباً عن النظر بشخصه وبرسائله وبصوره . وان الاربعمائة من الجنيهات كذلك غابت عن النظر وكانت كل ما تملك . . .

وسكنت الفتاة فى الحال شقة صغيرة وهى تصبر صبر الكرام معللة النفس بعودة النبيل الاصيل . وبتحقيق الوعد النبيل الاصيل ! . . .

وكانت تعرف عنوانه فى « كوك » فاخطرته بحالتها وبعنوانها :

وفى يوم من الايام دق جرس الباب . ففتحته بنفسها واذا بها أمام ساعى التلغراف . . .

كادت تقفز من الفرح وخصوصاً عند ما علمت أنه من الخارج . . .

وفضت التلغراف بنشوة السكران من البشرى وقلبهــا يكاد يقفز من مخدعه وإذا بها تقرأ :

« أبلغك آسفاً أنك حرة . انى تحت ضغط الظروف القاهرة أقطع علاقتى . اكرر أسفى » ؟

« صديقك »

صعقت الفتاة واغمى عليها بعد صرخة تذيب الحجر . لم يكن هناك إلا « ساعي التلغراف » الذى ظل واقفاً ينتظر البقشيش . وكان شاباً فيه مروءة فأجرى الاسعافات اللازمة حتى استعادت قواها . . .

☆☆☆

وبذلت الفتاة جهود الجبابرة لتثبت حق البنت المجحودة وليدة العلاقة غير الشرعية . فذهبت مساعيها هباء . . .

وتعرفت الى الاستاذ « شكرى » فكانت من الضحايا التى قذف بها خضم الحياة المضطرب الى « الجارسونيرة » . ولمح فيها سراً . ولمحت فيه شمماً . فعف وعفت . حتى كشف يوماً من الايام فى زيارة لها ان على « الشيزلونج » صوتاً بريئاً ينبعث من تحت الغطاء :

قال : ما هذا ؟ ؟

قالت : دموعى وآلامى وتعاستى . . .

قال : افصحى !

قالت : بنتى . . .

قال : وبنت من ؟

قالت : بنت الشارع . بنت الزقاق . بنت القدر ! . . .

☆☆☆

أيها الشباب النبيل : الاصيل : إذا سألتمونى ماذا تشتغل « لولو » اليوم ؟ أجبتكم :

— ابحثوا عنها فى شارع عماد الدين . . . إنها تشتغل « راقصة » ؟! !

. . . .

٤ ـ الشقيقتان

عودوا بنا قليلا إلى سنة ١٩١٢

ان الذاهب الى « مصر القديمة » يرى فى المدخل قبـل مستشفى « هرمل » منزلا كبيراً فى الفضاء أو فى المزارع لا أذكر جيداً . . . ثم لا أريد أن أعين جيداً ... ودعونى اغالط فى الجغرافية ما دمنا نسجل الحقائق ! ! !

فى ذلك المنزل كانت تقيم عيلة كبيرة

رب العيلة موظف كبير كان يتقاضى من الحكومة مرتباً كبيراً

وكان مغرماً بالزواج . وكان رجلا من « الدقة القديمة » خشناً فى مزاجه وفى طباعه . وأبى خياله السمج إلا أن يجمع زوجاته الثلاث فى ذلك المنزل الكبير

وكان له من الزوجة الاولى أولاد كبار . هم اليوم من كبار موظفى المصالح والدواوين

وله من الزوجة الثانية أولاد كبار . أغلبيتهم آنسات أو سيدات وابن واحد اظنه قد مات

وله من الزوجة الثالثة بنتان

الاولى كانت تبلغ السادسة عشرة واسمها « سميحة »

والثانية كانت تبلغ من العمر الحادية عشرة واسمها « احسان »

✡✡✡

ويقطن بجوار المنزل طالب يبلغ من العمر ستة عشر عاما ـ هو أيضا ـ وكان إذ ذاك بالمدرسة السعيدية

وتزاورت أسرة الطالب مع « أسرات » الموظف الكبير ذى الثلاث زوجات وامتزجت العيلتان

☆☆☆

كانت الفتاة الكبرى فى المدرسة « السنية » وكانت معروفة بجمالها الفتان : اللون الاسمر الخمرى . والشعر الطويل مودة ذلك الوقت

وبهذه المناسبة أود فى مؤلفى هـذا أن أسجل أننى من ألد اعداء الشعر غير الطويل ... أنا من خصوم الشعر المقصوص على طريقة أولاد البلد وطلبة المدارس وغواة « القصة » الامامية من ابناء الفلاحين ... الشعر الطويل النامى جمال مستقل بذاته ، يوحى بالخشوع والاجلال ويلفت النظر وحده كنعمة ثرية من نعم الله ... له كبرياء وله عظمة وله مغناطيس ... ثم له دلال حين يختفى فيه الوجه الجميل ... ثم سحر حين يتناثر باهمال مقصود فبعضه يتدلى على الصدر . وبعضه يجثم على الكتف . وبعضه ينسحب على الظهر . . . ثم له روعة حين يلعب به النسيم . ثم يأكل القلب حين يغمر العاشق وجهـه بين ثناياه وحين يمسح به دموع الحب والغرام ؟ !

من عهد أن قضى الجهل وسوء الحظ على هـذه الثروة قلت فى نفسى وداعا يا رمز الجمال . حين تجلى « القفا » وبرز ثقيل الظل ، ثقيل الدم ، ثقيل الوطأة على النظر ، أجرد أمرد أخضر قلت وداعا يا جاذبية !

أقول لكن الحق يا بنات اليوم : لقد انتحرتن شعراً . . . واتعس منكن حظا السيدات كبيرات السن نوعاً . كان الشعر الطويل النامى يهوش نوعا ما على انقاض جمالهن المتخلفة . فلما أجهزن عليه اجهزن - حتى - على الانقاض ؟ !

☆☆☆

كان طالب مدرسة السعيدية حريصاً على الوجود بمنزل أسرته حين تحضر سميحة . وكانت هذه حريصة على أن تذهب حين يكون الطالب موجوداً

وكانت حجة «سميحة» فى الزيارات المتكررة الصداقة التى توثقت عراها بينها وبين أخت الطالب وان كانت اصغر منها سناً بكثير . ثم كانت دائماً أبداً يصحبها حارس : اختها احسان

وكم كانت «الاخت» ولا تزال ليومنا هذا «الحجة» ، وكم كانت ولا تزال واسطة التعارف . وصاحبة الفضل فى تكرار المقابلات ووضع الحجر الاساسى فى العواطف . . . خذوا كلامى ببساطة ولا تغضبوا أيها الاخوة أشقاء كنتم أو غير أشقاء

طالما استخدمتم الاخوات فى انشاء العلاقات . وفى تنميتها وتغذيتها وفى نقل الرسائل وفى اصلاح ذات البين . وقد يكون هذا وذاك يتجه اتجاهاً صالحاً ولكنه قد يتجه فى بعض الاحيان اتجاهاً فاسداً . فى سبيل الاهواء أيها الاخوة لا تعفون ولا تذكرون أنكم تلقون اخطر الدروس على الاخوات وأنكم ترسمون لهن خطط الحب والهوى . وأنكم تكشفون لهن اسرار وسائل العشق . وانكم تحرضونهن تحريضاً حماسياً

على أن يفعلن مثلما تفعلون وعلى ان لا يرين فى الغرام شيئاً يخدش السمعة ويؤذى الكرامة . . .

هذه ملاحظة عرضية لا تمت فى أصلها أو فى نتائجها بنسب إلى وقائع حكايتنا ، ولكنى لم أستطع أن أغفلها وأنا أمر مراً على علاقة « الحب الابجدى » الذى نشأ بين الطالب — وبين « سميحة » . . .

وكان لابد من مراسلات وخطابات . أما أخت الطالب فرفضت — على سذاجتها — بتاتاً أن تكون ساعية البريد . وأما أخت « سميحة » فقد التحقت بالخدمة . . .

وإنى أسائل نفسى مندهشاً : لم يشغف العشاق من هذه السن ومن هذا الصنف شغفاً عظيما بالمراسلات ؟ !

فى درج كل طالبة وفى درج كل طالب رزم مكدسة من رسائل الحب باللغات الثلاث : العربية . والانكليزية . والافرنسية ... ثم بجانب هذه الخطابات صور فوتوغرافية فردية وزوجية تجمع بين العاشقين فى مختلف الاوضاع . وقد قرأت كثيراً من هذه الرسائل الحنونة فوجدت فيها غلواً واطناباً وتسامحاً وجنوناً ونزقا . ووجدت أساليبها من نوع أساليب القصص فضلا عن أنهـا امتازت بخيال لا يخـلو من سخافات ومضحكات ... فهذه فتاة تهدد بالانتحار — وهذا فتى يهدد بالقتل — وهذه أخرى تهب نفسها هبة شرعية لصديقها — وهذا آخر يقترح الفرار — وهذه تصف حالتها النفسية وتعرض تفصيلا دقيقاً لهواجس الارق — وهذا يرفق بخطابه منديلا مبللا بماء الدموع ؟ ! . . .

ثم تنقطع العلاقة الغرامية بحكم الظروف أو بحكم الضرورة أو بحكم

الفشل ، فتبقى خطابات الفتاة ومخلفاتها عند الفتى ، وتبقى خطابات الفتى وملحقاتها عند الفتـــاة . ثم يلعب الزمن الطويل دوره وتمر الاعوام والاعوام وقد تكون الفتاه قد ارتفعت إلى الجوزاء . وقد يكون الفتى قد هبط إلى الحضيض . وقد يكون العكس . ويظل السلاح القاسى الحاد فى يد كل طرف ومن يدرى كيف يستعمله ؟ ! !

والحب بحسب اختباراتى العديدة فياض ثرثار . يحكى ويروى لكل صديق ولـكل صديقة . وبرهانه الدليل الـكتابى الذى فى يده . وكم عانت الاسر المصرية مصائب بسبب هذه المراسلات . . .

هل تطمع هذه « القصة » فى أن تسدى الى المحبين الناشئين نصيحة : أن يحبوا ما شاء لهم الحب ولـكن لا يكتبون ! ! !

✡✡✡

ترعرع الحب بين الطالب وبين « سميحة » . . . وكانت الشقيقة الصغرى هى ساعية البريد . وفى يوم من الايام حملت لاختها خطابا من نوع ما وصفت فضبطه الوالد الخشن وفضه وقرأه . وكانت ثورة : أما العقاب البدنى فتوقع على الفتاتين . وكانت الصغرى هى صاحبة النصيب الاوفر . وصدرت الاوامر بالمقاطعة . وبمنع الزيارة . وبالاكتفاء بما تعلمته الفتاة من المدرسة ؟ ! . . .

وعانت « احسان » الصغرى من الضرب الشديد ما عانت . وسجل عام ١٩١٣ وراء أذنها اليمنى جرحاً مزمناً لعبت فيه أيدى الاطباء ومن ضمنهم « نصف طبيب » فى مدرسة الطب . طالب فى السنة الثانية قدمه « طالب السعيدية » وسبب المصيبة هدية ليقوم بالعلاج . واندمل الجرح

البدنى بعد زمن طويل ولكنه خلف شيئا . . . علامة مادية بقيت للذكريات . . .

☆☆☆

تزوجت « سميحة » بعد ذلك فانقطعت العلاقة بينهــا وبين طالب السعيدية . ثم فرق الزمن بين الاثنين وانسدل الستار على الذكريات ...

☆☆☆

فى سنة ١٩٢٧ أى بعد مرور خمسة عشر عاماً يدق جرس الباب فى « الجارسونييرة » دقاً رقيقاً . يفتح « المتر شكرى » الباب ويستقبل زائرتين . احداهما كبيرة فى سن الخامسة والاربعين . لا تستحق الوصف لانها ليست بالجميلة والثانية فى سن السادسة والعشرين جميلة من كل ناحية . صاحب « الجارسونييرة » يعرف الكبرى ولكنه لا يعرف الصغرى . وجرى التعارف والصغرى تحدق فى وجه الاستاذ بشغف وفضول . . .

ودار الحديث والصغرى واجمــة . تسمع ولا تنبس ببنت شفة . لفت هذا الجمود نظره فوجه اليها حديثه وأخذ يحييها وهى ذاهلة . ثم كأن اغماءة نصف يقظة قد غشيتها فهى تغيب عن المجلس وعما يدور فيه . ثم تتنبه وتتأوه ! . . .

قال الاستاذ لنفسه : إن فى الامر شيئاً

ثم قال لها : هل السيدة تشعر بتعب ؟ !

قالت بخفوت : لا

ثم قالت : نعم

قال : بماذا تشعرين ؟ ؟

قالت بظرف : لا تنشغل . الامر هين

ثم نهضت فجأة بشكل عصبي وأشارت اليه أن يتبعها الى الصالة . . .

قام وراءها وقد شغلته هذه الحركات العجيبة . وفى ركن من اركان الصالة همست فى اذنه قائلة :

هل كنت تسكن « مصر القديمة » منذ خمسة عشر عاماً ؟

قال مضطرباً : نعم !

قالت : وكنت طالبا بمدرسة السعيدية ؟

قال مضطربا : نعم !

صمتت ، ثم حدقت ، ثم هطلت دموع ثم ارتمت على الكرسى . . . تناول يديها وأخذ يهدىء روعها وهو لا يذكر شيئاً . وهو إذ يحاول ان يستدعى صديقتها الكبرى تقبض على أنامله ثم تشدها شداً إلى ما وراء اذنها اليمنى وتهمس : المس ، وتذكر !

جرح ؟ !

بل أثر جرح ؟ !

ويفيق الاستاذ من نوبة المفاجآت ويصرخ بجزع : أنت ؟ ! أنت . . .

فتقول : نعم أنا ! أنا « إحسان » . . .

☆☆☆

إحسان ! . . .

إحسان الصغرى أخت سميحة . . .

وبعد خمسة عشر عاما . . .

قال وقد تحركت عواطفه من قبرها الذى دفنت فيه فى سنة ١٩١٢ :
ـــ وسميحة يا إحسان كيف حالها ؟

قالت : مثلى ! . . .

قال : ماذا تعنين ؟

قالت : هكذا ... تزورك وتزور أمثالك من سكان الجارسونيرات !

وأخذت تبكى بكاء مراً وقد وقف بجوارها مذهولا متحسراً متألماً وهو يقول : ما أقساك أيها القدر ! . .

☆☆☆

وفى اليوم التالى حضرت الشقيقتان وكانت مناحة . . .

لقد مات زوج الكبرى وخلف أولاداً وخلف فقراً . . ومات أبو الشقيقتين وخلف هو الآخر فقراً . . . بقى الاخوة الرجال الكبار الذين يحتلون اليوم مناصب الدولة الكبيرة فى بعض المصالح بالقاهرة . منهم الذى يشرف على معاهد الاخلاق ، ومنهم الذى يدير ملاجىء البؤساء التعساء ، ومنهم الذى يجرى الرزق على معشوقاته ببذخ واسراف ، ومنهم الذى برز فى الهيئة بروزاً ساطعا . . .

يكفى أن تقول إحدى هاتين لاحدهم : أنا أختك ! لتحطمه تحطيما أدبياً أبديا . ولكن يا لعواطف المرأة حين تقبر سرها من أجل الآخرين ؟ ! . . .

هؤلاء الانذال تركوا الاختين غير الشقيقتين للقضاء وللقدر وللدنيا . ضنوا عليهما بالقوت فدفع « العرض » الثمن فلم يبالوا ! ! !

أيها الناس: لا تحتقروا بالله عليكم هذا الصنف من « ضحايا القدر »

وأصلحوهن ان وجدتم مجالا للاصلاح .

ولا أقل من احترام الدموع والاشجان !!!

☆☆☆

ان « قصص الجارسونييرة » عديدة وكل
النفسانى ومن نوعه . ولو احتمل المجال لقصه
ومأساة . .

يعيب المتطرفون فى عالم الاخلاق الفاضلة على
المسلك الذى يعدونه فى نظرهم معوجاً . . .

ولست أحاول الدفاع فانى من ذلك الرأى . ولكن لا بد
الاجتماعى أن يتصل بالمجربين ليدرس وليتعلم ان لم يغمر نفسه متعمد، ى
خضم ذلك البحر الرهيب . والا فمن أين يغترف النصائح وهى بنت
التجربة ووليدة الاختبار ؟ !

☆☆☆

قلت لصديقى « شكرى » بعد أن وصلت فى كتابى الى هذا الحد :
هل عندك من مزيد ؟ ؟

قال : عندى الأدهى والأمر . عندى تاريخ أربعة أعوام رهيبة .
كنى سوف أخفيه عنك الى أجل . . .

: ولم ؟ .

نه متصل بالدولة ، وبسياسة الحكم وبالاقطاب ! . . .

هؤلاء ؟ !

ومثلك تماما . غير أنى ، أنا وأنت ، من « الاحرار »

الذين لا تقيدهم زوجة ولا عيلة ولا أولاد ــ من الذين لا يحملون على جباههم عنوان الوظيفة ، ولا علم الدولة ، ولاواجب الحكم ــ من الذين لا تتأثر بسلوكهم المعوج مصالح العباد . . .

قلت : وهل من علاقة بين المرأة ، والدولة ؟ !

قال : هذا هو موضوع مذكراتى الآن . فاستلمها منى بعد عام ! .

. . . .

. . . .

فراق وخاتمة

فى صيف سنة ١٩٣٢ ظفرت « بالضاحك الباكى » فى بلاج من بلاجات الاسكندرية الثائرة فقرأت عليه قصته الاستعراضية . ووجدته قد تغيرت اخلاقه ، وقد اتزن . . .

قال : أقترح عليك ان نفترق . . .

قلت : لا مانع عندى . ولـكن ألا ترى ان تكتب بيدك خاتمة قصتك ؟ . . .

قال : حسنا . اليك كلمتى الأخيرة :

« مواطنى الشبان :

« شاء صديقى أن يقدمنى اليـكم شاباً مستهترا لتنتفعوا بمآسيه ومباذله . . .

« إنى أقبل هذه التضحية فى سبيلـكم عن طيب خاطر . . .

« لـكن تحت شرط :

« أن تقبلوا منى نصيحتين اثنتين :

الاولى : أن تتزوجوا قبل الخامسة والعشرين . . .

الثانية : ان لا تشتغلوا بالسياسة قبل الخامسة والثلاثين • • •

والى اللقاء

شكرى

« انتهى »